أمل العشماوي

الحَيَاة بِعُيُون المُسِنّين

مجموعة قصصية

الحياة بعيون المنسيين

قصص

أمل العشماوي

المحتويات

صندوق الحلوى.....6

نفحة الإنعاش..... 9

أسرار ودفائن.....15

القرين اللدود.....28

جريمة شرف.....39

أم البطل.....46

روائح ضالة.....50

وجهان للمنام الواحد..... 56

ألبوم صور.....63

تتمه.....69

إهداء..

إلى من قالت لي مامعناه "ولنا فى الحكاوي حِكم ومواعظ يمكنها، فى بعض الأحيان، أن تُجلب لنا الراحة، والرضا، والرثاء أيضًا إن لزم الأمر".. أمي الحبيبة..

إلى سيدة لم تبخل علي يومًا بالحكي فخرجت تلك المجموعة مشبعة بذكرياتي معها.. جدتي رحمة الله عليها..

"الذكريات هي الشيء الوحيد الذي يمكن أن يتغلب به البشر على الزمن لأنهم يؤكدون لأنفسهم بها أنهم لم يكونوا مجرد عابرين لهذه الحياة".

ابراهيم نصرالله

صندوق الحلوى

كفت شادية عن حساب عمرها منذ سنوات طويلة، تقريبًا بعدما سافر ابنها الوحيد لدولة أوربية، سعيًا وراء لقمة العيش المريح، تاركًا إياها رهينة للعزلة والشيخوخة، ولم يكن ثمة مايشحذ دوافع البقاء بداخلها سوى تلك الذكريات البعيدة التى تمسكت بها وراحت ترددها لنفسها كل ليلة قبل النوم! خشية من أن يقع عقلها المسن فريسة لمرض الزهايمر اللعين. لكنها، وبعد رحلة مضنية شاقة مع الزمن خذلتها الذاكرة وبدأت تفقدها بلا رجعة. ذكرى واحدة فقط تشبثت بها شادية وحفظتها عن ظهر قلب حتى بات من الصعب نسيانها.. ذكرى كانت فيها طفلة تلعب مع أقرانها أمام مسكن عم صلاح " بتاع الحلوى ".

لم يكن عم صلاح بائع حلوى، وإنما جار ودود، لطيف، طيب القلب وسهل المعشر.. وقد عرف بهذا الاسم – بتاع الحلوى - بين الأطفال لأنه كان يحتفظ فى بيته بصندوق حلوى فاخر، وما كان يترك طفل يطرق بابه إلا ويدعه يأخذ واحدة من هذا الصندوق الشهي، وكثيرًا ما أغدق على شادية ورفيقاتها بالحلوى اللذيذة والكلمة الطيبة وماكان أبدًا يتذمر منهن أو يبخل عليهن، فأحبوه جميعًا وأحبوا الطرق على بابه لأي سبب كان.

وعليه، وفى يوم وفاته كان العزاء والحزن يدمى قلب الأطفال قبل الكبار اشتياقًا لهذا الرجل النبيل واشتياقًا لابتسامته وفتح صندوقه اللذيذ، حتى وبعدما مرت السنون ظل اسم عم صلاح يتردد على

الألسنة التى ذاقت من صندوقه العجب، فيدعون له جميعًا بالرحمة والغفران..

قبل أن تنتقل شادية للسُكنة فى بيت ابنها، قامت بالبحث الطويل حتى وجدت صندوق قديم الطراز يشبه تمامًا صندوق عم صلاح، ومالبثت أن ملأته بكل ما لذ وطاب من أنواع الحلوى رغبة فى أن تقوم بمثل ماقام به عم صلاح، فتصير مثله أسطورة فى قلوب الأطفال.. لكنها لم تدر أن الزمن تغير، وأن الأطفال ماعادوا يلعبون أمام مساكنهم، ولايطرقون الأبواب، ولايبتسمون للغريب، فما طرق أحدهم بابها ولا رأت طفلًا أو راشدًا طوال السنوات الماضية عدا أم خليل التى تقوم برعايتها وخدمتها، حتى تلك لاتطرق الباب أو ترن الجرس وإنما تدخل بالمفتاح وتخرج دونما إزعاج، لكن شادية لم تيأس وعاشت على أمل أن يأتى هذا اليوم الذى سيطرق بابها طفلًا قبل أن تفقد الذكرى الأخيرة.

وذات يوم استيقظت شادية على صوت غير معتاد، استغرق الأمر منها ثوان قبل أن تدرك أنه جرس الباب الذى تسمعه لأول مرة.. تحاملت على جسدها الضئيل وعلى صحتها الفقيرة وأسرعت لفتح الباب وهى تلهث كمن ركض شوطًا، وإذ بها تقف أمام طفلة لاتتعدى العشر سنوات.. طفلة جميلة بملابس صيفية بلون السماء، وشعر مربوط كذيل حصان ولها جسد ممتلئ ووجه ملائكي مدور.. افتر ثغر شادية عن ابتسامة عريضة وانشرح صدرها وراح قلبها يخفق بجنون.. ومالبثت أن عرفت من الطفلة أن سروالها سقط دون قصد فى البلكونة خاصتها حتى أومأت لها

بابتسامة بلهاء مع نظرة مريبة اقشعر لها بدن الطفلة، ثم أسرعت الى الداخل واختفت خلف الجدران.

غابت شادية فترة طويلة قبل أن تعود وفى يدها السروال فقط.. ناولته للطفلة بجفاء، ومن دون أن تنتظر منها كلمة شكر أغلقت الباب فى وجه الصغيرة بعنف وقلة ذوق.. ثم استدارت، وتهاوت على الأرض. دفنت رأسها بين كفيها وانفجرت فى بكاء حاد، ومرير.

لم تنس شادية الذكرى التى رددتها يوميًا عن عم صلاح وأسطورته الحية، وعن صندوق الحلوى الذى أخفته بحرص لسنوات، هي فقط نست أن تذكر نفسها أين أخفت الصندوق!.

تمت

نفحة الإنعاش

"جعلتنى أريد أن أصبح رجلا أفضل".

As good as it gets فيلم

أُخبر نفسى كل ليلة أن لا أحد ينتصر على الزمن مهما طال عمره، وأنه من الطبيعي أن تترك نفسك للاستسلام، كل العجائز تفعل هذا بلا استثناء، وتسمح للحياة اليومية الروتينية أن تطمرهم بالضجر فى سبات عميق من الفراغ وقلة الحيلة.

شعرتُ هذا اليوم وكأنى بالأمس كنت شابًا وفير الصحة فى منتصف العمر واستيقظت اليوم عجوزًا مهلهلًا بالكاد يقوَ على الحركة.. شعري أبيض كالثلج، وجسدي هزيل كالعكاز الذى أتوكأ عليه. وكلما نظرت الى وجهى فى المرآة صباحًا، لا أتعرف على ملامح الشخص الماثل أمامي. وكأنى صرت مجهولًا حتى عن نفسي.

وقفت على باب المطبخ أتأمل زوجتي بعد أن غدر بها الزمن مثلى، وترك لها جسد بالي، بعظام متجمدة وبصر غائم. سنوات طويلة مرت وهي تخوض معاركها الخاصة مع مرض السمنة، والسكر، وسرطان الثدي، وحادث مرور، وأمراض أنثوية لاحصر لها. وفى النهاية أدركتها الشيخوخة وهزمتها –كما يبدو- شر هزيمة.

تنهدتُ بمرارة، وسألتها بدون مقدمات:

- ما الذى حدث لنا طوال السنوات الأخيرة الماضية؟.

رمقتنى بازدراء واضح، وأردفت:

- هل جُننت يارجل!.
- وما العيب فى السؤال؟.
- لقد مر علينا كل أمراض الدنيا والأخرة ولم يبقى سوى جنون الزهايمر هذا.. فهنيئًا لك به وحدك.

وعادت تُعد الإفطار بحركات بطيئة مضجرة بيديها المعروقتين وأصابعها الطويلة. كان شعرها الأسود المكلل بالأبيض مرفوعًا فوق رأسها تنسدل منه خصل صغيرة تحيط بوجه متغضن يملؤه التجاعيد. وكانت ترتدى بنطلون مشجر من القطن الخام، وكنزة خضراء باهتة ذات ياقة عالية.

جلستُ على مائدة الإفطار، جلستُ حوالى الربع ساعة، استرجع أيام الشباب بمزيج من الحنين والفقد، وأتذكر يوم رأيتها أول مرة؟.

كان ذلك فى مطلع السنة الدراسية الأولى فى الجامعة، فبراير 1966. كانت وقتها جميلة بحق لدرجة أن التفكير فى الارتباط بها يعد ضربًا من الخيال، لكننى كنت عازمًا على الاستيطان فى قلبها دون سواه.

تزوجنا بعد سبع أعوام، وأنجبنا ثلاثة أبناء وصلت سعادتنا بهم الى حد السماء. ورغم الخلافات والمشاكل وأعباء الحياة عمومًا كنا محظوظين. لقد أحببنا أطفالنا، ومنزلنا، وأحب كلًا منا الأخر،

ومن المؤكد أن كل لحظة مرت علينا وقتها كانت أشبه بهدية من الله.

فأين هي الأن تلك الزوجة الجميلة، والأبناء الصغار، والبيت المغمور بالشباب والصحة والبهجة!. كيف انتهى كل هذا!.. وصرنا على مشارف الموت رافعين للزمن راية الاستسلام.

انتشلتنى زوجتي من سرياني فى الماضى بقولها:

- لما لا تأكل؟.

قُلت لها حازمًا:

- لست جائع.
- يجب أن تأكل كي تأخذ الدواء.

صحت فيها:

- قُلت لك لست جائع.

تركتها، وخرجت الى الشرفة. رحت أتنفس الهواء بعصبية، وأتابع نشاط المارة وحركاتهم المرنة بمزيج من الحقد والكراهية. ولما أحسست بوجع فى العظام من جراء هواء الخريف، دخلت الى البيت وبقيت كعادة كل يوم، مستلقى على الأريكة أمام التلفاز، أتابع الوقت يزحف، فى بحر شاسع من السأم والضيق. جاءت زوجتى، وأردفت:

- ما الذى حدث لك اليوم؟.

فرددت بفظاظة:

- لا شيء.

جلست بجانبى من دون أن تتفوه بكلمة أخرى لأكثر من نصف ساعة. لم نعد نتحدث أو نضحك ونروى القصص والنكات كما كنا نفعل قبل عقود. السنوات الطويلة التى أمضيناها سويًا تعدينا خلالها مرحلة الخرس الزوجي بمراحل بل أصبح الحوار ذاته يمثل عبئًا ثقيلًا على أجسادنا المُجهدة.

فوجئت بها تقول على حين غرة:

- كانت جدتي امرأة لطيفة مرحة تُحب الجميع، لكنها فجأة تغيرت، بين ليلة وضحاها، وصارت مكفهرة تميل الى الوحدة والسكون. كنت وقتها فى السادسة من العمر ولم أفهم السبب، حتى أبي لم يفهم، وظن أنها مريضة وأحضر لها الطبيب. سنوات مرت علينا ولم تعود جدتي لسابق عهدها.. وفى يوم وفاتها بكي أبي كما لم يبكى من قبل، وسمعته يقول لأمي "يحزننى أنها ماتت ولم تُدرك كم كانت عزيزة ومحبوبة بيننا، التفكير فى الماضى والخوف من المستقبل أنساها من تكون فى الحاضر".

صمتت زوجتي قليلًا، واستأنفت:

- قد تبدو الحياة أحيانًا غير عادلة وعشوائية، لكنها تبقى جميلة بذكرياتنا فيها.. بماضينا، وبحاضرنا، وحتى بأحلامنا التى اندثرت وعجزنا عن تحقيقها.. الحياة جميلة بمن عشنا بينهم وأحببناهم وأحبونا.

كلماتها لمست وجداني فداهمنى الخجل. رؤيتها لي على هذا الوضع مثل جدتها حطمت رجولتي. وشعرت برغبة جنونية على

الهرب، بأن تنشق الأرض وتبلعنى، بأن أبتعد بما تبقى لي من ثبات.

اقتربت منى وعلى ثغرها ابتسامة، وكان صوتها ناعمًا:

- قُل لي ياعزيزي.. ما الذى يدور فى رأسك؟. ألم أكن لك دومًا حافظة أسرارك ورفيقك الأمين؟.

نظرتُ الى عينيها اللطيفتين كطفل يشكى أمه، وسألتها:

- هل لاتزالِ تحبيننى؟.
- لقد أحببتك من اللحظة الأولى التى رأيتك فيها فى الجامعة، وسأحبك دائمًا حتى آخر نفس فى عمري.

أجابت بالصدق الذى عاهدته منها دومًا، الصدق الذى يجعلها جوهرة نادرة وسط آفات المجتمع. اقتربت منى أكثر الى حد شعرت بأنفاسها الدافئة تدغدغ حواسي، وطبعت قبلة حانية لطيفة على خدي وشفتي.

عند ذلك، أحسست بالدفء، وسرت بهجة راضية فى جسدي كله. وكأن استيائي وتململي من الحياة قد تلاشى بلمسة منها، ولم أعد قادرًا على الشعور أو التفكير فى أي شيء بخيبة، حتى إننى شعرت بأنى انتصرت على الزمن بزوجتي.

أن تجد من يحبك فى كل أحوالك، حبًا حقيقيًا شفافًا، حتى آخر نفس فى عمره هو الانتصار الحقيقي للإنسان فى تلك الحياة البائدة. قليلون فقط هم من يمتلكون ذلك النوع من الحب.

وأنا امتلكته..

إذا أنا المنتصر.

تمت

أسرار ودفائن

"لا تذهب بعيدا لا تبغ السفر فقمرك أمامك هنا "

جلال الدين الرومي

عاد يحيى ليسكن شقته المقابلة لي، وقد تجاوز السبعين من عمره، عجوزًا منهكًا يجر خلفه حقيبة سفر متوسطة الحجم. وقفت مشدودًا فى مكاني أتأمله مليًا: قصير القامة له جسد ممتلئ وشعر خطه المشيب، وثمة تجاعيد دقيقة فى نهايتي زاويتي عينيه ومنتصف جبهته وحول فمه، لكنه، وبلا أدنى شك، كان يحيى البرهامى. وقف يحيى على عتبة بابي فى الصباح الباكر يسألنى بحرج عن رقم بواب العقار لأنه لم يجده بالأسفل. عرفته من عينيه الواسعتين النافذتين، وبشرته القمحية التى تميل الى البياض وأنفه الطويل المائل لليسار، شيئًا مافى عينيه تغير، انطفأت شعلتها ربما، لكنه كان هو، يحيى البرهامى، البطل المغوار.

أخبرنى على عجل أنه تواصل مع البواب بطريقة ما، وأرسل له بعض النقود ليعيد شقته للسُكنة الآدمية بعد أن استوطنتها الأتربة والحشرات والقوارض أيضًا لسنواتٍ عديدة. وانتبهت لتوى أن باب شقته المتآكل البالي قد تغير بالفعل لآخر جديد. غريب! هل جرى هذا التغير الملحوظ أمام شقتى وأنا غافل؟! يبدو أننى فقدت الأمل لدرجة مثيرة للشفقة.

تحركت الى الوراء، وأوسعت له مدخلًا ليدلف الى الشقة، فاعتذر قائلًا أن الوقت باكر وأن أهل البيت بالضرورة نيام. كانت زوجتى نائمة بالفعل، لكننى ألححت عليه حتى أذعن، وارتمى على الأريكة الأقرب فى الصالة منهكًا من جراء السفر الطويل. اتصلت بالبواب الذى علمت منه أنه كان بصحبة زوجته فى المشفى العام وأنه فى طريق العودة. أغلقت المكالمة منشرحًا، ومضيت الى المطبخ، وعدت أحمل الشاي الساخن وبعضًا من شطائر الجبن والبيض، وجلست قبالته نتناول الإفطار ونتحدث.

قال أنه عاد ليستقر فى وطنه أخيرًا، لكنه لايريد لأحد أن يعلم بعودته على الأقل لعدة أيام، أومأت برأسي متفهمًا، وأنا فى الحقيقة عجزت عن الفهم، واستطبت لفكرة أن وراءه لغز كبير لايريد لأحد النبش فيه.

سألته عن حياته فى الغربة، فبدأ يراوغ فى الإجابة، أو يرد بكلمات غائمة عن الطقس وطبيعة العمل واختلاف العادات والتقاليد بيننا وبينهم، لم يقل كلمة واحدة عن حياته الشخصية، فأثار فضولي أكثر وعبث بوجداني. هممت بسؤاله مباشرة كان عما يشغلنى، لكنه زفر بتململ ساخطًا على تأخر البواب الى هذا الحد، ليسود بيننا صمت طويل لم يبدده سوى صوت طرق البواب على الباب. نهض يحيى شاكرًا إياي، ومضى الى شقته مع وعد منه بزيارة أخرى.

وقفت على العتبة أحدق إليه شاخصًا، يجتاحنى سيل عارم من الخواطر، خواطر تتوارد على ذهني من ذكريات ماضٍ مرير ومؤلم، فرصة الحياة التى ضاعت منى دون مقاومة.

عرفتُ يحيى شابًا وسيمًا مهندم الثياب فى أوائل الثلاثين من عمره، وكان قد تزوج فى الشقة المقابلة لنا من فتاة باهرة الجمال تخطف الأعين والقلوب مع كل خطوة تخطوها، لكنها فى العادة لم تكن منفتحة فى علاقتها مع من حولها وقليلة الكلام، على عكس يحيى الذى عاهدناه محبًا للألفة والثرثرة، سعيدًا مبتهجًا على الدوام، بيد أن لا أحد وقتها تخيل أن الأيام ستبدل عهودها سريعًا وتنقلب عليه بلا رحمة، فبعد عامين فقط من زواجه توفيت زوجته الحامل فى حادث سير أليم، سبب له اكتئاب حاد، ورغبة عارمة على السفر والهروب فى أحضان الغربة والنبذ.

أذكر أنه كان يحملنى على كتفه ويدور وأنا فى السابعة وربما الثامنة من العمر، وأحيانًا كان يداعب شعر رأسى وهو يمر أو يمنحنى قطعة حلوى، فأكاد أطير من الفرحة مزهوًا أمام الجميع بصداقتنا، لدرجة أننى بكيت لحزنه، وبكيت أكثر وأكثر لرحيله، وعشت أنتظر أخباره البعيدة بفارغ الصبر. كنت قد سمعت من أمي التى سمعت بدورها من الجيران أنه سافر للعمل فى ليبيا، ثم انتقل بعدها الى انجلترا. سألت أمي عن كلا الدولتين بشغف وبحثت عنهما فى الخرائط، وجمعت جزء لابأس به من تاريخهما الطويل. قيل بعدها أنه بات يعيش فى ألمانيا وتزوج من شقراء وأنجب منها طفلين، وقيل أيضًا أنه انتقل الى هولندا، وأن أحدهم رآه فى سويسرا وأخر فى فرنسا وأخر فى النرويج. ولما كانت معلومات أمي المحدودة عن العالم لاتروى ظمأى الجامح، عرفت طريق الكتب، ورحت أقرأ وأكتشف وأرى مايراه بعنيه، وأتخيل

بعقلي الصغير ما يمكن أن يعيشه ويشعر به، حتى صار تتبع عالمه الكبير هو هوايتي الأثيرة.

وفى يوم الحادي عشر من سبتمبر لعام ٢٠٠١، استيقظ العالم على الفاجعة التى غيرت المشهد السياسي والمستقبل بأسره. الهجمات الإرهابية التى دُمرت برجي مركز التجارة العالمي فى نيويورك وأسفرت عن مقتل نحو الثلاثة آلاف شخص وإصابة ستة آلاف آخرين. الحدث ذاته لم يكن مهمًا بالنسبة لنا بقدر أهمية اختفاء يحيى من بعده، فقد اتصل يحيى بأخوه الأصغر من أمريكا، وبالتحديد من نيويورك، قائلًا أنه فى رحلة عمل قبل ذلك الحدث المأسوي بيومين، ثم انقطعت أخباره كليًا، وذهبت الظنون بالجميع كل مذهب. أتراه جثة تحت الأنقاض أم الأسوء تم اقتياده الى جهة غير معلومة بتهمة الإرهاب مع مئات المسلمين الذين تم انتهاك حريتهم وكرامتهم وإنسانيتهم خلف السجون لمجرد الاشتباه بهم فى الحادث.

ظل إخوته، لفترة طويلة بعدها، يبحثون عنه ويسألون، حتى مرت الشهور والأعوام من دون فائدة، وحين سئموا من البحث عنه اعتبروه فى عداد الموتى.

وبرغم من كل تلك السيناريوهات المروعة التى ارتبطت باسم يحيى البرهامى، وبرغم أن الاسم وحده كان يبعث فى النفوس كل مشاعر الشفقة والحزن والحسرة على خيرة شباب العائلة والعقار. كنت فى قرارة نفسى أتمنى لو أكون مثله، طائرًا حرًا محلقًا فى سماء الكون، بلاقيود، وبلاوطن. حتى نهايته السوداوية تلك كانت تمثل لي الخلود الأبدي الذى يستحقه مغوار مثل يحيى البرهامى.

لكن، ماذا عن أمي؟. تلك المرأة التى كرست شبابها وحياتها لتصبح لي أمًا وأبًا فى آن واحد، بعد أن مات أبي وأنا لازلت فى المهد صبيًا ورفضت كل عروض الزواج، وعملت فى أكثر من وظيفة لتوفر كافة احتياجاتي. أيمكن بعد كل هذا الجهد والتضحيات أن أتركها وحيدة، وهي على مشارف الشيخوخة؟.

لا، قطعًا مستحيل. الأمر كان معقدًا وقتذاك. أن تطمس حلمك فى صدرك لأعوام ولاتجرؤ على البوح به مع أقرب الناس كي لاتجرحه هو شعور دامي ومميت لكن أحيانًا لايكون أمامنا سوى خيار واحد.. الصمت.

لأجل أمي صمت وبقيت فى مصر، وعملت كموظف حكومي يأكل ليعيش، ويعيش ليعمل، ولأجلها أيضًا تزوجت وأنجبت، ولليوم الذى ستموت فيه انتظرت!. نعم، انتظرت موت أمي.. فإن ماتت سأحيا، إن ماتت سأتحرر! سأعبر الحدود وأتبع حلم بلا أي نية للرجوع، ولو على حساب زوجتي وبناتي سأفعل، ولو على حساب كل ماعاهدته يومًا فى الوطن وارتحت إليه سأفعل، فالحلم الذى يتشبث به عقلك لسنوات يبقى أعظم وأجمل من كل الوجود. كان علي أن أنتظر موت أمي، مادام فى موتها نجاة، ومادام فى الانتظار شوقا لايمل، ولايهدأ.

حتى وإن، مع مرور السنوات، يأس الحلم من كثرة النباح وضاع صوته وسط الزحام، سيبقى فى القلب قابعًا فى أعمق أعماقه ينتظر اللحظة التى سيثور فيها معلنًا عن اللاعودة.

وفى ذات صباح بارد كئيب، استيقظت على الخبر المنتظر، أخيرًا.. ماتت أمي. رحلت عن عالمي وحملت فى كفنها الأبيض كل القيود والوعود والمسئوليات التى أثقلتنى بها لسنواتٍ طويلة، ومع ذلك ألمنى فراقها، بكيت عليها كالطفل الجريح وصرخت كالمجنون وانهرت كالعاجز، ولما استعدت وعيي من جديد بعد أسابيع من العزاء والحزن والندم، اكتشفت مذهولًا ذلك البئر العميق الذى غرقت فيه بلا أي شعلة ضوء.

فمن هي تلك الدولة البائسة التى ستفتح ذراعيها لرجل أربعيني خاطه الشيب بدأ يشكو من ضغط الدم وألم المفاصل، فقيرًا بالكاد يكفى التزامات بيته بعد أن صرف كل مدخراته على علاج أمه وزواج ابنتيه الواحدة تلو الأخرى. حتى فى موتك يا أمي لم تسلمى الروح إلا وأنا عاجز عن السفر ولو على سبيل السياحة، فكم أنتِ قاسية وحنونة إلى درجة تثير الجنون.

كان علي أن أطمس حلمي للمرة الثانية، مضطرًا وليس راغبًا كالمرة الأولى، لكن ظهور يحيى فى ذاك الصباح أعاد لي هذا الهاجس اللذيذ الذى أدمن عليه خلايا جسدى ولمدة طويلة.

كان على أن أتمسك بالصبر لأيامٍ ثِقال، وممارسة ضبط النفس ريثما يرتاح يحيى من سفره الطويل، تاركًا لي مجالًا أوسع للثرثرة.

اعتدت السخرية من ابنتي وقتما كانت تقف خلف الباب تسترق السمع لعلها تبصُّر أي صوت أو إشارة تدل على وصول خطيبها

الذى صار زوجها الأن، وها أنا ذا أفعل المثل وقد أضنانى طول الانتظار، وغلبنى الشوق.

فاستعجلت ذلك اليوم الذى قرعت فيه جرس باب يحيى، وأنا غير واثق من أنه سيسمح لي بالدخول، معلقًا آمالي على شخصيته ومرحه القديم وذلك الشعور العارم بالمودة والسرور الذى كان يتنزل على جنبات روحي وأنا معه، وتعجبت من سرعة الزمن الذى مر من عمرى وقد حسبته بطيئًا مملًا فى شبابي.

وقفت أمام بابه مترددًا وإن كانت الروح تواقه، أحمل بين ذراعي صينية فضية مرصوص عليها براد شاي ساخن وأكواب فارغة وطبق من الحلوى الفاخر. دقائق طويلة مرت قبل أن يأتينى صوت وقع أقدام من الداخل يتبعه سعال جاف، ثم انفتح الباب، وألفيت يحيى أمامى يرتدى بيجاما قديمة بُهت لونها، واهترأت من كثرة الاستعمال، وقد تناثرت خصلات شعره الأشيب بصورة ملفتة وغريبة فبدا كهلًا للغاية:

- مساء الخير ياأستاذ يحيى، أسف على الإزعاج، لكن...
- أنتَ! قاطعنى بفظاظة، واستأنف: هي الساعة كام دلوقتى؟.

فقلت له بخجل:

- السابعة مساءًا.

مسح أنفه بظهر كفه، ودارت عينيه فى المكان بقلق حتى استقرت على صينية الشاي أمامي وخصوصًا على طبق الحلوى، فابتسم ابتسامة مرحبة، وقال:

- تفضل بالدخول.. تفضل.

تقدم هو فى الطرقة الطويلة، وسرت خلفه مطأطأ الرأس حاملًا الصينية كخادم يتبع سيده، ثم وجدت نفسى فى غرفة واسعة أثاثها قليل ومستعمل كقطع الروبابيكيا، ولأنه باع كل مافى شقته قبل رحيله بأيام خمنت أن هذه القطع البائسة هي التى أحضرها له البواب بناءًا على طلبه. لم أتحمل رائحة البيت، رائحة عطنة تثير الغثيان، بالإضافة للظلام المسيطر عليه إلا من بعض الأضواء خافتة الإنارة، واصلت التقدم بصعوبة أكثر حتى جلست على أحد المقاعد بجانب يحيى تحت مصباح شاحب لايكشف الا عن جانب من وجه.

وفجأة، وبدون مقدمات، انقض يحيى على طبق الحلوى والشاي كحيوان جائع، لم يكترث لوجودى، بل ولم يترك لى مجالًا للمشاركة، والأغرب أنه بعد أن انتهى من كل شيء، تجشأ بصوت فظ وحمل الصينية بما عليها من براد فارغ وأكواب متسخة ودخل بها الى المطبخ، ثم عاد خالِ اليدين ليرتمى على مقعده مبتهجًا ويمرر أطراف أصابعه المتسخة ببواقى الحلوى على خصلات شعره المشعث.

- أهلًا بك ياجاري العزيز.

قال أخيرًا، وكأنه انتبه لوجودى توًا، وأضاف أنه لايحب الزيارات كثيرًا معتبرًا إياها مضيعة للوقت ومُكلفة لكلا الطرفين، لكنى مرحب بي فى أيوقت.

أخذنا الحديث بعدها الى أحوال البلاد، وكيف تغيرت كثيرًا من يوم رحيله حتى تلك اللحظة، ولم نجد مانع تلك المرة من التطرق الى

حياتنا الشخصية وماضينا، ووجدت نفسى أسأله عن زوجته الشقراء وطفليه الذكور، فبدا عليه الامتعاض الممزوج بالتشوش قبل أن يطلق ضحكة مدوية ردد صداها الجدران، وقال بلاخجل أنه اضطر لاختلاق تلك الكذبة كي يبدو بالمظهر اللائق أمام أسرته التى زاد عددها يومًا بعد يوم، صدمة لكننى لم أتوقف عندها كثيرًا، وسألته بلهفة عن المدن التى سمعت أنه زارها، وعن تاريخ كل مدينة ومعالمها المميزة، استغرب وقال أنه زارها بالفعل إلا أنه لم يهتم بكل هذا الهراء، وإنما كان يثيره حقًا ويجذب انتباه فى الغربة هو أثداء النساء ومؤخراتهن المكتنزة، وراح بتبجح يحكى عن غرامياته المتعددة والشاذة أيضًا بكلمات نابية وشتائم يعجز اللسان عن النطق بها مؤكدًا أن لكل امرأة لون ورائحة وطعم يميزها عن الأخريات، وأن جل ماأراده فى الحياة أن يغترف من تلك النكهات بقدر مايستطيع.

لم تفلح كل محاولاتى فى بتر مستنقع ذكرياته موضحًا أنى لا أحب سماع المزيد، لأنه ظن أن قبُح مايتفوه به يثير رجولتي.

تذكرت البواب ليلة أمس حينما قال أن الغربة علمته الحرص الشديد وأنه لايريد لأحد من أسرته تحديدًا أن يعلم بعودته، مشيرًا أن فى الأمر سر لايرتاح له قلبه. فسألت يحيى بغتة لماذا لاتريد لأحد أن يعلم بنبأ عودتك! سيبتهج الجميع لذلك.

فإذا به يصيح راجيا:

- أمانة عليك ياأستاذ مش عايز حد يعرف إن أنا رجعت مصر.
- ليه هما عملوا لك حاجة؟.

افتر ثغره عن ابتسامة هي مزيج من السخرية واللامبالاة والسخط:

- أصلى كنت بشغل فلوسهم لحسابى وخسرتهم هناك، إنت عارف بقى إن الدنيا خسارة ومكسب وهما مش هيفهموا، عمومًا أنا كنت هكلمهم بنفسى لما يؤون الآوان.

مر عشرون عامًا ولم يأن الآوان بعد يايحيى. فكرت والضيق يعتصر باطني، وكآخر أمل لي رحت أنبش عن آخر ذكرى لم يطأها اللوثة بعد.

وسألته:

- فاكر سارة يايحيى.

"سارة" هي زوجته الحامل التى ماتت فى حادث سير كما ذكرت سابقًا. مد يحيى نظره الى الفراغ للحظات قليلة، وبدا متأثرًا وهو يقول:

- ياه سارة فكرتينى بالغالية.. تصدق وتآمن بالله ياأستاذ سارة كانت الست الوحيدة اللى لاقيت فيها الجمال والطيبة والرضا مع بعض، عمرها ما اشتكت لحد ولا رفعت صوتها.. كانت بنت أصول بصحيح.

ثم استهل حديثه بنبرة تشفى لامراء فيها:

- الله يرحمها بقى.. كانت زعلانة أوى لما عرفت إنها حامل منى أهي ماتت وأخدته معاها.

وضحك برضا، وقهقهاته تتعالى، حينها فقط انبلجت الحقيقة واضحة أمام عيني وانكشف الزيف والتشويه الذى طالما غطَّى سنوات عمرى البائدة.

فالبطل المغوار الذى اتخذته حُلما هو فى الأصل وغد بخيل دفع زوجته الى الموت وربما الى الانتحار؛ لتنجو بصغيرها من الحياة فى سجن أبيه.

البطل المغوار الذى اتخذته حُلما عاث فى الأرض فسادًا ومجونًا، ولم يقدر قيمة ما امتلكه يومًا.

البطل المغوار الذى اتخذته حُلما سرق مال إخوته واختبأ منهم كالفأر العفن دون أي نية فى أن يصبح بطلًا أو مغوارًا، لكن نحن، كعادتنا المتأصلة، جعلنا من "الفسيخ شربات"، ويحيى البرهانى كان أقل منفعة من الفسيخ الفاسد، وأكثر نتانة.

كان يحيى غارقًا فى حكاية من حكاياته مع امرأة أسيوية سلمت له مفتاح قلبها وجسدها ولم تجد منه سوى الخواء والعدم، كان صريحًا للغاية، ولايخجل من فجوره.

لولا صراحته تلك لما انجلى عن العين غشاؤها، وتجسدت للبصر المشاهد، لولاها لما رأيت خيبتي وعمق فشلي.

رحت أحدق إليه متبرمًا، ويتضاعف إحساسي بالغضب من تلك اللامبالاة المبطنة بسخرية لاذعة، وفى النهاية تركته ونهضت أجرجر قدمي الى الخارج، فاستوقفنى يحيى بقوله:

- رايح فين ياأستاذ.. طب بقلك أيه معاك خمسة مئة جنيه سلف.. ماتخافش هرجعهالك على طول.. يومين تلاتة كدة واسحب من الفيزا.

انفجرت فيه بكل مايعتمر فى صدري من غضب واحتكار:

- لأ مش معايا، ولو معايا مش هديهم لإنسان عديم الرحمة والانسانية زيك.. يازبالة.

وخرجت ألعنه وألعن نفسى، وصوته العفن باتهاماته اللاذعة وشتائمه الفظة تتردد على مسامعي. شعرت بنبض قلبى يثور، والحلم يتمزق الى أشلاء مبعثرة، وقد تهيأ لي أننى على وشك التمزق أيضًا.

دلفت الى شقتي، وأسندت ظهري الى الباب، كذبت عيني وأذني قائلًا أن هذا المسخ ليس يحيى أبدًا، وأن هذا الجنون الذى حدث قبل قليل مجرد مزحة ثقيلة، من دون جدوى، إذ كان هو نفسه، يحيى البرهامى، لكن بوجه آخر، وجه الواقع القبيح.

طفق الدمع من عيني، سائل، بلا إرادةً متألمًا حزينًا على عمر ضاع فى قاع الهواجس والأوهام.

ما إن أغمضت عيني فى ألم حتى تبادر الى أذني صوت زوجتي تقول:- أنتَ بخير؟.

فتحت عيني على اتساعهما ورأيتها تقف فى منتصف الصالة، وتنطق ملامحها بالحيرة والقلق.

بدت جميلةً، بل ورائعة الجمال.. عيناها كحيلتان وثغرها مكتنز بحمرة طبيعية، وشعرها الأبيض زادها سحرًا وإثارة.

فقلت لها بوجه باسم، فى نظرة ثابتة:

- أشعر وكأن أحدهم غرز خنجرًا فى قلبى، فأعادنى الى الحياة.

تمت

القرين اللدود

"قد لا يتم وجود الخير الكثير إلا بوجود شر يسير" .

بن خلدون

سأخبركم بقصة غريبة حدثت قبل عقود، وتركت أثرًا مخيفًا فى نفس كل من سمع بها، أو رآها بأم عينيه. قصة هالة، المرأة التى خَسرت تقريبًا كل شيء كانت تمتلكه وقتذاك، والسبب لايمكن أن يخطر على بال أي انسان عاقل.

لا أعرف إن كنتم ستصدقون تلك الحكاية، أنا نفسى ساورتنى بعض الشكوك عندما سمعت بها، لكنى على يقين من أنكم ستجدون فيها متعة قلما نجدها فى حكايات العجائز.

كان كل شيء فى حياة هالة يسير بشكل طبيعي لايوحى بالكتابة عنه، إلا أن جاء ذلك المساء الذى ربما يكون هو البداية الحقيقية لقصتنا المثيرة، ذلك المساء الذى استيقظت فيه هالة على كابوس مفزع فى وقت متأخر من الليل لتتقلب بعده على الفراش لفترة طويلة محاولة العودة الى النوم من دون جدوى، نهضت قائمة فى طريقها الى المطبخ، تتمشى وهي فى ملابس نومها القطنية الفضفاضة فى اللحظة التى تهيأ لها أن ثمة ظل أسود يتحرك فى مرآه الصالة بدل من انعكاس صورتها، اقتربت منه أكثر فإذا بضوء ساطع يضرب مقلتيها بقسوة، فى لمحة عين، ويختفى،

أجفلت فتعثرت قدميها بقدم كرسي المنضدة، وأحست بدوار شديد مع ألم حاد يدق على رأسها بلاهوادة.

بعدها، بدا لها أن هذا الظل الغادر ما هو إلا تهيؤات من أثر النعاس، وأن هذا الضوء هو انعكاس لكشاف ضوء سيارة تمر بالشارع، وتناست الأمر كليًا. لكن التغيرات الرهيبة التى حدثت بعد ذاك الحادث بيومين أعاد لذهنها هذا المشهد مرارًا وتكرارًا فى خوف عظيم.

كانت هالة تعمل فى مدرسة الباسم الخاصة كمعلمة لغة عربية للصف الثالث الابتدائي، وكانت لحظتئذ تكتب على اللوحة البيضاء بالقلم الأسود وتتكلم بصوت عالي يطن فى أذان الطلبة أمامها حينما بدأ الوهن يتسلل الى عظامها، وتصير الرؤية فجأة باهتة.

كل شيء بعد ذلك حدث بسرعة رهيبة فى مشهد غريب لانراه إلا فى الأفلام الغربية. الصراخ جاء أولًا من حنجرة طالب فى الصف الأول يرتدى نظارة طبية بعدسات سميكة، عاجله شهقات فزع واستغراب من باقي الطلبة، ثم اندفع أحدهم ركضًا خارج الفصل، وتبعه الباقي فى فوضى عارمة. وحدها هالة من بقيت فى الفصل، متصلبة، وعاجزة تمامًا عن فهم مايحدث، حتى إنها راحت تتساءل بسذاجة "ماذا فعلت لأثير فزعهم هكذا**!؟**".

لاحقًا، أخبرها مدير المدرسة أن الطلبة أجمعوا على رؤية امرأة أخرى تشبهها تمامًا، كانت تقف فى الزاوية المجاورة لها، تتأملهم والشرر يتطاير من عينيها الملتهبتين.

- إنه القرين.

قال أحد المدرسين بلهجة متحمسة، وهو رجل فى الخمسين من العمر له شارب كث ولحية مشذبة، وأضاف أن القرين لايفارق الانسان من يوم مولده حتى وفاته، وهو إما أن يكون قرين سوء أو قرين خير.

عجزت هالة عن الفهم، كذبتهم بلا استثناء وهي تتلعثم فى كلماتها بسرعة وارتباك، ومع ذلك، ورغم جهلها الواضح بما حدث وفزعها منه لم يتوانى المدير لحظة واحدة عن طردها من المدرسة وخروجها أمام الجميع مكللة بعار ليس لها ذنب فيه.

عادت هالة الى شقتها، مشوشة ومذعورة كطفلة ضائعة تبحث عن حضن الأمان. كانت الشقة غارقة فى ظلامها المعتاد إلا من نور خافت، تنقله أشعة الشمس المتسللة بخجل من فروقات شيش النوافذ. شقتها بسيطة للغاية، وهادئة للدرجة التى تشيع فى النفس الكآبة، فلم تزد عن صالة وغرفة نوم ومطبخ وحمام، ورغم صغر حجمها الذى لايزيد عن ستين مترًا كمساحة كلية نادرًا مايسمع له الجيران صوتًا وكأن ساكنيه أشباحً صامتة، وربما تلك هي الحقيقة بالفعل، فزوج هالة كان من أكثر الرجال صموتًا على كوكب الأرض، يميل بطبيعته الى الوحدة والهدوء حتى مع هالة نفسها، إذ كانا يعيشان تحت سقف بيت واحد، ولكل منهما حياة مستقلة عن الآخر. لم تحظَ معه يومًا بعشاء رومانسي، ليس بينهما أسرار أو حكايات قديمة أو ذكريات تكون شاهد على ترابطهما النفسي، فلم تشعر هالة تجاهه يومًا بوهج الحب الذى قرأت عنه فى القصص والروايات، وكعادتها فى مواجهة الواقع القاسي استعانت بالخيال، فالخيال كان سلاحها السري لتتقبل كل شيء.. خيالها هو الذى

مكنها من التعايش مع أبوها الساذج وزوجته اللئيمة قبل الزواج، ومكنها من التعامل مع زوجها صعب المراس والعاجز عن الإنجاب برضا وصبر.

غاصت هالة -خلال الساعات الموالية- عميقًا فى حوار ذاتي حول ماحدث فى الصباح، صراخ الفتيات لايفارقها، وإحساسها بالإهانة وعدم الفهم يعتصر باطنها دون رحمة، حتى إنها لم تنتبه لدوران المفتاح فى قفل الشقة، واضطربت عند سماع صوت أقدام عماد داخل الشقة، تطلعت إليه باستغاثة وقد لمعت عيناها بدموع تنتظر حكم الإفراج. كان عماد رجل طويل القامة والوجه، له عينان كسولتان، وشفاه مذمومة. قال لها ببرود:

- مساء الخير ياهالة.. أنا جعان.. حضرى الغدا على طول.

واتجه الى غرفة النوم دون أن يلاحظ الحالة الرثة التى كانت عليها، ولما قالت له على المائدة بتردد:

- أنا اتخانقت مع المدير وسبت الشغل.

رد بتلقائية ممزوجة بسخرية:

- بسيطة هتلاقى غيره، ماهو مافيش أسهل من شغل المدرسات اليومين دول.

لم تستطع هالة أن تحكى لزوجها حقيقة ماحدث فى المدرسة خشية من لامبالاته المعتادة أو ربما يتعامل معها بماهو أكثر إيلامًا.

نجحت هالة فى العثور على وظيفة فى مدرسة لاتختلف عن سابقتها، والنتيجة أن المشهد ذاته تكرر بنفس تفاصيله، نفس الفزع

وحدة الصراخ والطرد المخزي، ولما تكرر المشهد فى مدرسة ثالثة أحست أن الفاجعة أكبر من أن تتعامل معها وحدها.

وفكرت أن تتكلم مع عماد حول الأمر برمته، ولما فتحته فى ذلك أخذ يتلفت حوله واجمًا، ثم لانت ملامحه وبدا مهتمًا فى إنصاته، راضيًا على ماتقول، حتى أنه تمتم بعد أن انتهت مقطوعة الأنفاس:- المشكلة ليست في إذن.

ليست فيه! ما الذى يتحدث عنه؟ تساءلت هالة فى سرها بفزع، وانتبهت الى الهالات السوداء التى تكورت تحت عينيه من قلة النوم والتي لم تلاحظها من قبل؛ إذ بات يتحاشى النظر إليها فى الأونة الأخيرة ويعود فى وقت متأخر عن موعده المعتاد وهو الذى كان حريصًا أشد الحرص على مواعيده، حتى أنه صار يتقلب كثيرًا فى نومه وأحيانًا تجده فى الصباح غافيًا على أريكة الصالة، فهل يشعر بالقرين؟ هل رآه بدوره؟.

بتر عماد خاطرها بقوله:- إحنا لازم ندور علي حد يقدر يخلصنا منه بأي ثمن.

"يخلصنا منه" ابتلعت هالة ريقها بصعوبة وقد عرفت منه الإجابة دون أن تسأله.. نعم زاره القرين وأفزعه حتى النخاع.

توجهوا فى صباح اليوم التالي الى بيت الشيخ عبدالله إمام المسجد القريب، والذى استقبلهما بحفاوة بالغة، وتحدث إليهم عن حقيقة الجن والقرين كما ذكر فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية وكتب التفسير، ثم طلب من هالة بحرج أن تجلس على الأرض العارية

تحت الإضاءة الخافتة، بينما يجلس عماد على الأريكة البعيدة يراقب مايحدث بقلب محموم.

ولم تجد هالة ماتفعله سوى أن تركز بصرها على عماد، وتتماسك. بمنتهى الهدوء والتمرس وضع الشيخ راحة يده على جبهة هالة، وراح يدمدم بآيات من القرآن الكريم وبضع كلمات سريعة بصوت خافت لم تتبين منها شيئًا، أدارت عيناها بهدوء ناحية الشيخ فرأته وقد أغمض عينيه وأحنى رأسه بينما شفتيه لاتكفان عن التمتمة، وفى النهاية ناولها كوب ماء وطلب منها أن تشرب منه على ثلاثة جرعات متساوية.

بعدها، وجدت هالة بعد جهد جهيد وظيفة ملائمة بإحدى المصانع، بعيدًا عن مهنة التدريس، التى اعترفت لنفسها أخيرًا أنها لم تحب تلك المهنة قط، وإنما أحبت قربها من الأطفال الذين حرمت من إنجابهم، فإن لم يمنحها الله طفلًا تكون له أمًا، فعلى الأقل هي تشارك فى تعليم أطفال الآخرين وتصير جزء من ذكريات بعضهم. لم يفلح الأطباء طوال سنوات من الانتظار المضني والترقب القلق أن يكتشفوا سر التأخير على حد قول عماد، ولم يبدو عليه أي اهتمام بالقصة وكأن الأمر لايعنيه، مما أصابها فتورة بحيرة عميقة، حتى عثرت صدفة على ورقة طبية تفيد بأن عماد عاجز عن الإنجاب وإلا فلماذا سيتزوج من فتاة مثلها بلا جمال أو مال أو أهل يهتمون بأمرها. فكرت بأسى، وسقطت فى صمتٍ خانع.

لم يظهر القرين بعد مقابلة الشيخ عبدالله لأشهر طويلة، حتى خيل لهالة وعماد أن هذا الكابوس قد ولى أخيرًا بلاعودة.. صفحة

واحترقت. لكنه عاد ثانيةً، وكان أكثر غضبًا وظهورًا.. رأته هالة فى عيون عماد وتصرفاته المخيفة، وفى عيون زملاء العمل ونظراتهم المرتعبة قبل أن تحمل هالة حقيبتها بهدوء وتخرج دون انتظار مقابلة المدير، وأيضًا رأته فى عيون بعض المارة ومن حاول التحرش بها أو مضايقتها.

اصطحبها عماد الى شيوخ وقساوسة وحتى دجالين لكن كل محاولتهما بائت بالفشل الذريع، وعادوا بعد كل مرة مهزومين من الداخل، مذبوحين الملامح، ضائعين بالعجز وقلة الحيلة.

كانت هالة تعي جيدًا أن عماد يتألم من شدة الرعب الذى يلاحقه، فهو من يراها وليس هي، لكنها اعتقدت أنه أبدًا لن يتخلى عنها، ليس بعد كل تلك السنوات.

كانت مخطئة..

إذ بدأ عماد ينفذ صبره وثباته رويدًا رويدًا حتى ثار ذات يوم بغتًا، أطلق غضبه على الأثاث والمفروشات وأي شيء يعترض طريقه فى حالة هستيريا عارمة. الرعب الذى عاشه طوال الأشهر الماضية تدفق فى موجة واحدة أمامها وتهشم تماسكه المصطنع كالزجاج.

صاحت فيه هالة بصوت مختنق:- خليها تختفى ياعماد.. خليها تمشى.. ساعدنى أرجوك أنا مرعوبة ومش عارفة أعمل أيه.

أغمضت عيناها بقوة وسدت أذنيها وأغلقت عقلها عن التفكير، ومن جسدها النحيل خرجت انتفاضات سريعة دلالة على هول ما لاتراه ولاتشعر به.

قبض عماد على ذراعيها وضمها الى صدره بكل مايموج فى صدره من خوف وعجز. نظر الى عيناها المُحتنقة بالدمع والى ثغرها المشتاق للمسة الأمان، فمال نحوها، وقبلها.

قبلة طويلة ناعمة.. كانت المرة الأولى التى يقبلها فيها هكذا.. كانت المرة الأولى التى لاتريده هالة أن يترك شفتيها.. تريده أن يأخذها.. كل مافيها كان يهتز.. كل مافيها ينتفض بجنون الرغبة. وإذ به فجأة، يدفعها بقسوة على الأرض وعينيه لاتفارق أحد أركان الغرفة، ثم صاح بفزع:- أنتِ طالق ياهالة.

ورحل عنها هاربًا مذعورًا، بل وأرسل لها ورقة الطلاق بعدها ببضعة أيام، وترك لها الشقة لتعيش فيها، وعلى الأرجح أنه فعل هذا لأنه لايرغب فى إثارة غضب قرينتها أو الاقتراب من هالة أصلًا.

وعادت الأيام تدور وتعود بهالة الى سيرتها الأولى، وحيدة على فراشها، تشق طريقها بمفردها، لكن تلك المرة تعين عليها أن تعتزل العالم بأكمله، خوفًا من التعرض لإهانة جديدة على إثر ظهور القرين.

تعين عليها الموافقة على العمل كبائعة للملابس الداخلية النسائية فى متجر صغير لايأتى إليه إلا عدد قليل جدًا من الزبائن.

هدوء تام تغلغل الى أعماق هالة ومر عليه تسعة أشهر بلا أي جديد، هدوء الحياة المسربلة بأستار وادعة الغموض، ورغم ذلك كان لايزال هناك شعور عارم بالقلق والذعر يغزوها كلما أدارت المفتاح فى القفل ودخلت الى شقتها بعد يوم عمل طويل، ليصفعها

الفراغ والسكون بقسوته القاتلة، يقبض روحها ويحاصرها بكل مايحيط بها.

تنهيدة ممزقة حزينة خرجت من أعماقها، ثم سارت مترنحة نحو الحمام تجرجر الساق تلو الأخرى. نزعت ملابسها على عجل، وتسمرت كتمثال متحجر تحت ماء الدش البارد لدقائق طويلة. وعندما غلفها السأم وخرجت، انزلقت قدميها الحافيتين على الأرض العارية، وكان وقوعها موجعًا، فصرخت بتأوه مع إنها تعلم جيدًا أن لا أحد يسمعها أو يشعر بها. بصعوبة تحاملت على جسدها الواهن وجلست على حافة حوض الاستحمام، أغلقت فمها وكأنها لاتريد أن تسمع آهات وجعها المليء بالصراخ المكتوم.

ثمة نقط ماء تسقط من الحنفية بانتظام خلف ظهرها، طويلة ومزعجة، فيما كان الصمت يغطى الشارع فى الخارج. بين حين وآخر يأتيها نباح كلب أو عواء قطة شاردة.

دقائق من الصمت المطبق، ونهضت بعدها لتنظر الى انعكاس صورتها فى مرآة الحمام، ولم يعجبها ماتراه. ازدادت نحولًا وذهب اللون من وجهها حتى خُيل لها أنها تنظر لشخص آخر، وكأن هذا الوجه الشاحب ليس وجهها، كما لو أن روحها حلت فى جسد آخر ليس بجسدها. فأغمضت عيناها بتحسر وأجهشت بالبكاء.

اعتادت عيناها على حرقة الدمع، إذ غدت تبكى كثيرًا، أحيانًا كانت تبكى لساعة أو ساعتين، وأحيانًا تستيقظ من غفلتها فتجد الوسادة لاتزال مبللة بدموعها الفياضة. مسحت دموعها بأطراف

أصابعها وفتحت عيناها المغروقتان بالحزن والعجز، فوقع بصرها على شرايين يدها الخضراء وفكرت "ماذا لو عاد القرين للظهور مرة أخرى فى عملي الجديد أو بين جيراني؟ ماذا سأفعل لو استمر معي بقية حياتى؟".

استعادت بحرقة ليلة رحيل عماد أو بمعنى أصح هروبه.. أه من تلك الليلة المُسهدة، وكل الليالي السابقة التى أرهقت روحها، والليالي التى لم تدع لها فرصة للحياة! ذكريات عبارة عن شريط طويل من خيبات الأمل والقهر. كانت محبطة من كل شيء، من الماضي ومن الحاضر وحتى من المستقبل الغامض. إلا متى ستتحمل الخوف والنبذ والوحدة التى تطاردها أينما ذهبت. تحملت الوحدة طوال حياتها لكن الخوف والنبذ من جراء ظهور ذاك القرين كان فوق طاقتها.

فلما لا أتخلص من عذابي الأن؟. فكرت.. ثم مضت الى المطبخ وعادت تحمل معها سكين حاد، نظرت لنفسها فى المرآة مرة ثانية، أمسكت بالسكين وقربته من شرايين يدها اليسرى وكلها عزم وثبات. أحست ببرودة المعدن على بشرتها فانتفضت مذعورة، وبدأت دقات قلبها تتسارع من شدة الانفعال قبل أن تتذكر أن تلك هي الطريقة الوحيدة للنجاة.. سينتهى كل هذا السخف قريبًا ياهالة، وستتحررين من قرينك الى الأبد. انتهى الأمر.. كونى شجاعة. قالت فى سرها، وفكرت: الله غفور رحيم.

وفجأة، داهمها ذلك الشعور المألوف بالوهن والصداع الحاد، وإذا بها تلمح ذات الظل الأسود فى المرآة، كان واضحًا تلك المرة.

التفت لتنظر جانبًا فإذا بها وجهًا لوجه أمام عدوها اللدود.

نعم القرين الذى أفزع الجميع بظهوره المباغت، ماثلًا أمامها فى صورة طبق الأصل منها، بنفس الوجه الأسمر الشفاف والجسد النحيل وحتى تسريحة الشعر. الشيء الوحيد الذى اختلف بينهما هي نظرة العين، فيها ثبات وقوة لم تعهدها فى نفسها قط. والغريب، إنها لم تشعر تجاه ذاك القرين بأي شيء، وكأن خوفها كله تبدد كالغبار وحل بدلًا منه الصمت الممزوج بنكهة الفضول. حدقت هالة الى قرينتها مطولًا، تأملتها، راقبتها وهي تخفض بصرها الى السكين العالق بينهما، وتشير إليها محذرة بنظرة واحدة، فى نظراتها كلامٍ واضح، وفى صمتها أوامر لانقاش فيها. ألقت هالة بالسكين على الأرض بدون تفكير، وعادت تنظر الى القرين فى انتظار التكليف الثاني حينها فقط سمعت صوت القرين يهمس داخل عقلها بصوت فحيح:- اطمني.. كل شيء سيكون على مايرام. ثم ابتسمت بحنان، وتحركت نحو باب الحمام، وتلاشت كالدخان.

تسمرت هالة فى مكانها لبعض الوقت، ثم مضت الى غرفة النوم وكلها همة ونشاط، كما لو إن عبئًا ثقيلًا قد رفع عن كاهلها. استلقت على فراشها الأبيض ونامت على الفور كما لم تنام من قبل، ولايوجد سوى مسمى واحد لهذا الاحساس الذى عصف بها فى تلك اللحظة: السلام الداخلي.

تمت

جريمة شرف

"يودع سره فى أضعف خلقه"

مثل شعبى

بعد انتصاف الليل وسكون الضجيج وافتراش الأسرة الدافئة، تلقت النجدة بجنوب الجيزة، بلاغًا من رجل يدعى أنه ارتكب جريمتي قتل بحق زوجته وعشيقها بعدما ضبطهما متلبسين فى وضع مخل بشقته بالعمرانية، وبمجرد تلقى الخبر، انتقلت قوة أمنية من المباحث الجنائية الى موقع الحدث، وانتشرت القوات فى محيط الجريمة، ومعهم تجمهر عدد من الجيران والمارة والفضوليين وسرت في أنفسهم الأسئلة المستفهمة المستترة بتشجيع ورضا.

وبعد معاينة مكان الواقعة والفحص المؤقت، والذى جاء كالتالي" بشقة بالدور الرابع والأخير تم العثور على جثة امرأة شابة فى العقد الثالث من عمرها، زوجة المتهم، ملقاة فى غرفة النوم ترتدى قميص نوم ومصابة بطعنتين فى الصدر والبطن، كما تبين وجود جثة عامل معها، عشيقها، فى منتصف الأربعين من العمر، ومصاب بعشر طعنات فى أماكن متفرقة من جسده مابين الصدر والبطن والفخذ". تم القبض على الزوج المدعو ياسر وبحوزته سلاح الجريمة، وقد اعترف أنه عاد باكرًا من عمله، وسمع صوت همسات وضحكات مائعة صادرة من غرفة النوم، فسحب سكين من فوق المنضدة وتوجه لهناك، وبمجرد أن فتح الباب،

وقعت عينيه على كارثة أفقدته النطق، حيث وجد زوجته في أحضان صديق عمره، مشيرًا الى أنه لم يتردد لحظة فى تسديد طعنات لهما بالسكين حتى لفظا أنفاسهما الأخيرة.

- الشرف غالى يابيه.

قالها ياسر بأسي، وصرخ فى الشارع على مرأي ومسمع من الجميع بأنه قتل زوجته وعشيقها، انتقامًا لشرفه، فتهلل الجميع لثأره، وتعالت صيحات التشجيع والمباركة، لدرجة أن بعض النسوة أطلقن الزغاريد والهتاف، وتحولت الفاجعة الى عُرس هزلي شارك فيه الجميع فيما عدا امرأة واحدة، عجوز فى منتصف السبعين من عمرها على الأرجح، تتوكأ على عصا خشبية وترتدى عباءة سوداء تحت شال من الصوف الرمادي الثقيل. الأرض تحتها موحلة، سقطت الكثير من الأمطار فى تلك الليلة شديدة البرودة، فلماذا إذا خرجت تلك العجوز من مرقدها الدافئ!

تقدمت ببطء شديد، بقدم غير واثقة، ترتعش، توجه كلامها الى مفتش المباحث وهي مقطبة الجبين مافحواه أنها تريده أن يأخذها الى قسم الشرطة لتدلى بشهادتها، قائلةً أنها لن تضيع وقتهم أبدًا. استدارت ونظرت الى ياسر بازدراء واضح، من رأسه حتى أخمص قدميه، وكأن بينهما ثأر قديم، فحدجها المفتش بنظرة خاصة ثم أجابها بالموافقة، وأخذها معه بالسيارة، تاركًا باقي رجال الشرطة في مكان الحادث ليقوموا بالإجراءات اللازمة...

جلست العجوز فى قسم الشرطة قبالة المحقق، بوجود شرطي يسجل كل ماتفيد به. كانت كل حركة من حركاتها مدروسة، بطريقة لانجدها فى أي كهل فى مثل سنها، وفى نظراتها ثبات وإخفاء جعل المحقق يشعر أن فى جعبتها الكثير من الحقائق والأسرار، فطلب لها مشروبًا، وترك لها مجالًا واسعًا من الصمت، صمت يسبق المفاجآت، صمت طويل لايجرؤ أحد على قطعه بالكلام سواها. هي أيضًا شعرت بأنها فى صراع مع شخصيتها المخفية، تلك التى تحب البقاء فى الظلام خلف أسوار الحقيقة، وبين ضميرها الثائر المتمرد على طبيعته، لكنها وبعد أن طال بها الصمت لدرجة تبعث على الملل والتشكك فى سلامتها العقلية، لملمت شظايا روحها المبعثرة، ثم بدأت بالحكي بصوت ضعيف لكن ثابت ومتزن:-أنا ياولدى.. واعذرنى إن قلت ولدى، فأنا كما ترى فى عمر جدتك.. أنا ياولدى أعيش بمفردي فى شقتي الصغيرة، أحيانًا يأتى أحد من أبنائي أو أحفادي للزيارة وقت الظهيرة ثم يرحلون قرب العشاء، وأعود بعدها إلى وحدتي وسكوني وجلستي المعتادة، فى الظلام، خلف النافذة شبة المغلقة، حيث بإمكاني أن أرى كل مايجرى فى الجوار. وبخفية أكثر.

كانت نافذة غرفة نومى تمنحنى امتيازًا، فلا يوجد فى كل الحارة، أفضل من موقع المراقبة هذا. فكنت من مقعدي الوثير خلف نظارتي السميكة أشرف على البيوت المجاورة، ومحل الجزارة، والحلاق، والقهوة، والشارع الطويل المؤدى للشارع الرئيسي.

إنه مرقبي، أبقى فيه حتى مطلع الفجر. وأنا على يقين أن لا أحد يرانى، لا أحد يشك بي، فمن منهم سيصدق أن هناك امرأة شغوفة

خلف النافذة الرمادية، تمضى حياتها فى التجسس على الجيران، والمارة، والغرباء، تتأمل كل تفصيله من سلوكهم، كل مساء، يومًا بعد يوم، وتستشف نواياهم وخطاياهم السرية بلا كلل أو ملل.

سألها المحقق باهتمام إن كانت ترى شقة ياسر من موقع المراقبة هذا؟. فرمقته بانزعاج، وكأنها تلومه على قطع اعترافها بما لم تبوح به لأحد قط، لكنها استأنفت بعد ثوانٍ:- نعم، أو على الأقل جزء من الشقة، إذ كنت من خلال جلستي أرى نافذة المطبخ الصغيرة المفتوحة مباشرة على باب الشقة، فكنت أرى الداخل والخارج بوضوح شديد.

فى الشهر الأول على انتقالهما الى الحارة، ياسر وزوجته جنات، قبل عام مضى، كانت الحياة تسير معهما بشكل هادئ وطبيعي، الزوج يخرج للعمل فى السابعة مساءًا ويعود قرب الفجر، والزوجة تنتظر عودته بابتسامة عريضة وذراعين مفتوحتين على الدوام، فرأيتهما مثالًا للحياة الزوجية السعيدة والاستقرار الهانئ، إلا أن جاء ذلك اليوم الذى قلب تخيلاتي رأسًا على عقب.

فمع بدء العتمة خرج الزوج فى موعده المعتاد للعمل واختفت جنات عن ناظري لأكثر من ساعتين قبل أن يطرق أحدهم باب شقتها، وإذا بجنات تهرع نحو الباب وتستقبل الضيف بحفاوة بالغة. عانقها الرجل الضخم بحرارة ورافقها الى داخل الشقة وهي متأبطة ذراعه بنشوة وابتهاج. وفكرت حينها بجفون مثقلة من أثر النعاس أنه فيما يبدو أبوها أو أخوها وإلا ماجاء فى هذه الساعة المتأخرة من الليل، وتناسيت أمرهما كليًا.

لكن بعد أسبوع تكرر المشهد بحذافيره مع رجل آخر، دققت النظر أستوضح المنظر فرأيت جنات ترتدى قميص نوم فاضح من الساتان الأزرق، ورأيت الرجل يميل نحوها فى قبلة طويلة ويتحسس جسدها باشتهاء قبل أن يتوارى سويًا خلف الجدران.

شهدت الأسابيع الموالية حركة دائبة فى شقة جنات، وتوافد إليها رجال مختلفين فى الشكل واللون والحجم، وكأن جنات عاهرة تتقن التنوع بين زبائنها. وذات ليلة، كنت باقية فى مكاني أتقلب بين النوم واليقظة من شدة الملل، وإذا بباب شقة جنات يُفتح ويطل ياسر برأسه مترددًا رغم سكون البيت. وكلص متمرس لاتسمع لخطواته صدى تقدم فى الصالة وأبقى الباب مواربًا. وكنت قبلها بسويعات قد رأيت رجلًا قصيرًا وبدينًا للغاية يدخل مع جنات ولم يكن قد خرج من عندها بعد، فاستيقظت كل طاقات الانتباه لدي وقد توقعت أن جريمة قتل ستحدُث لامحال، أنت بدورك ياحضرة الضابط، وبدون شك، تخيلت ماتخيلته وقتذاك، لكنى رأيت جنات تخرج إليه مهرولة وهي تحبك الروب حول خصرها النحيل وتتبادل معه حوار قصير على إثره أشار ياسر إلى ساعة يده متذمرًا، فردت عليه بحزم ودفعته دفعًا خارج البيت فامتثل ولم يرجع إلا بعد خروج الرجل الذى نام على فراشه وتلذذ بجسد زوجته، لتستقبله جنات حينذاك بابتسامتها العريضة وذراعيها المفتوحتين، وكأن شيئًا لم يحدث.

كنت قد فكرت مليًا فى فضح خيانة جنات أمام ياسر والجيران، لكن الموقف الذى فاجأني بفجوره أربكني وقد ظهر أن الزوج نفسه على علم بسهرات الفُسوق والعربدة التى تقودها زوجته، هذا

بالإضافة الى رغبتى فى عدم فضح هويتي ومكان المراقبة الخاصة بي لأي أحد، ويكفى ماتعلمته عبر سنوات طويلة مضت، وأهمها أن متعة الحياة تنطوى على أسرار وخبايا لايعرفها سواك، أسرار بإمكانها تدمير أصحابها أو تغيير مصائرهم للأبد، لذلك أحببت كتمان الأسرار.. والجلوس على مقعدي طوال الليل، أطلق لخيالي وتفكيري العنان للتحليق فى كل بيت وداخل كل نفس بشرية، وهم معتبرين أننى سيدة عجوز أمرها مقضي وأيامها فى الدنيا معدودة مع إنى لو فتحت فمي ليوم واحد لاكفهر نهارهم لسنوات وغدى حالك الظلمة.

بت ليلتي بعد تجلى الحقيقة كاملة أمام عيني منقبضة من شدة القرف؛ فجاءت الأيام والأسابيع الموالية كئيبة ومزعجة، حاولت فيها قدر المستطاع التغافل عن كل مايدور فى شقة جنات، حتى بعد أن أطلت الرؤوس واشرأبت الأعناق على ضجة صرخة مفزعة من حنجرة جنات التى علمت من فاعل خير برغبة ياسر فى الزواج من امرأة أخرى فى السر، فراحت تعايره بماضيه البائس الذى انتشلته منه بطيبة قلبها وكرمها الغير محدود، فرد عليها بلطمة قوية، وردت عليه بأخرى مماثلة.

سألها المحقق متى حدث هذا الشجار؟!.

فأجابت:- قبل ستة أشهر تقريبًا. وأكملت:- لم ينقض شهر واحد أو ربما أقل وعادت الحياة بينهما الى طبيعتها الأولى وكذلك السهرات الليلية واستضافة زبائن اللهو والمرح. وخلال تلك الفترة دارت الأحاديث عن كثرة ضيوف جنات أثناء غياب زوجها وعن طبيعة سهراتها الغامضة فى القهوة والبيوت والمحلات المجاورة

بطريقة تشى بالغرابة، وكأن أحدهم أنار بصيرتهم وأنساهم همومهم، وتيقنت من حدسي عندما رأيت ياسر يدخل هذا المساء بخطى وئيدة كما فعل من قبل، لكنه تلك المرة كان يحمل بين طيات ثيابه سكين كبير جاء به ليرتكب جريمته، ويتخلص من ماضيه كله دفعه واحدة، وبشرف لايعرف له معنى. لا، لم يكن ياسر زوج محترم كما خدع الجميع.. ولم يكن غافلًا عن علاقات زوجته المحرمة.. وبالطبع، لم يكن يسعى الى الانتقام كما أدعى.. بل كان قوادًا قاتلًا يستحق الإعدام والفضيحة.

قطعت العجوز روايتها، لتلتقط أنفاسها من شدة التأثر، وقد زال عنها التماسك والثبات الذى أتقنته طيلة التحقيق، وكأن بركان حافظ على خموده لقرون، وصار الأن، مشتعلًا يفيض بثورانه.

تنفست العجوز الصعداء بعد هنيهه، وزفرت. وعندما رفعت عيناها تجاه المحقق، لاحت ابتسامة صغيرة على طرفي شفتيها النحيلتين، وقالت:- انتهى دوري ياحضرة الضابط، وحان دورك.. والله على ماقلته شهيد.

وبعدها نهضت قائمة، مدت يدها للتوقيع على أقوالها المكتوبة، ودارت حول نفسها فى طريقها الى الخروج، لكنها قبل أن تفعل قالت بصدق للمحقق:- أتدرى ما المضحك المؤلم! أننى سأشتاق إليهما، سأشتاق إليهما كثيرًا جدًا.

تمت

أم البطل

"صحيح موته وجعنا بس من غيره نبقى ضعنا"

من قصيدة قولى يأم الشهيد

كانت الساعة تقترب من التاسعة صباحًا، والصيف فى أوج قوته وعنفوانه. تكونت قطرات العرق فوق جبيني وسالت بلاهوادة على خدي ورقبتي، عبثا حاولت تجفيفها بالمناديل الورقية.

كنت لحظتذاك أسير بين القبور وأبحث عن قبر صديقي الذى استشهد قبل شهرين بالقرب منى على الحدود فى مواجهة مع أعداء الوطن والدين. أي دين هذا الذى يتحدثون عنه، وأي وطن؟! وهم لايعرفون إلا الفساد والخراب.

قُلت لصديقي الشهيد قبل يوم من استشهاده:

- مكتوب علينا حماية الأرض وعلى غيرنا الاستمتاع بها، وعجبى.

فقال لي بابتسامته المعهودة:

- أن تكون جندًا من جنود الله على الأرض ليس أمامك إلا خيارين: أن تعيش بطلًا أو تموت شهيدًا، وهذا هو قمة الشرف والمتعة.

لو عرف من أراق دمه بسلاحه الصامت أنه كان أكثرنا حُبًا للوطن وتعلقًا بالدين لقتل نفسه بذات السلاح من شدة الخزي والندم. لعنة الله عليه فى الأرض وفوق السماء.

وجدتُ قبر الشهيد على بُعد أمتار منى، وأبصرتُ عائلته المؤلفة من طفلين صغيرين، وامرأة لاتزال فى ريعان شبابها تتشح بالسواد من رأسها حتى أخمص قدميها، ومعهم سيدة عجوز هي وبلاشك أمه.

أصغر الطفلين سنًا والذى لايزيد عمره عن ثلاثة سنوات، كان يقف مبهورًا بباقة الزهور البيضاء التى يحملها بين ذراعيه أكثر من اهتمامه بمن يقبع تحت التراب. الصغير لايدرك أن رحيل والده تلك المرة سيكون بلاعودة.

أما ابنه الأكبر فبدا لي مشتتًا مكلومًا، يحمل فى يده صورة حديثة تجمعه بأبيه. ينظر إليها، يتأملها بعينان تفيضان بالدمع وقلبه مشتاق، يرفض خسارة أبيه وهو لم يكتفى منه بعد.

ضمته أمه الى صدرها وطلبت منه أن يكف عن البكاء لكى لايزعج الشهيد فى نومه. يشهد الله أننى لم أنظر إلي وجهها قط، لكنى سمعتها تهمس بصوت ممزق باكِ:

- مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

على عكسهم تمامًا وقفت أمه العجوز، بدت هادئة، سعيدة تكاد تُجزم أن لاصلة تجمعها مع الشهيد. كانت تحمل بين يديها القرآن الكريم، تقرأ أياته غيبًا، وتبتسم.

اقتربت منهم أكثر وألقيت السلام والعزاء، قلت لأم الشهيد:

- رحمة الله عليه ياخالة كان من خير الرجال.

هزت رأسها بالإيجاب، وقالت بثقة:

- أعلم.. فأبنى هو من اختار أن يموت شهيد.

- لا أحد يختار الموت ياخالة، فهو أجل ومكتوب.

- ابنى فعل. قالت ببساطة، واستأنفت:- كان من الممكن أن يتم نقله لمكان أكثر أمانًا وهدوءًا بمكالمة هاتفية مع أحد المعارف من المسئولين، لكنه رفض، وقال لي:- أريد أن أحارب العدو ياأمي، أن أكون رجلًا يدافع عن أهله ووطنه حتى الرمق الأخير، أريد أن يتطلع أطفالي لحياة أفضل بلاخوف فخورين بأبيهم الذى لم يتخلى عن الأرض وعن الوطن.

قلت له بألم:

- وإن مت ياولدي.

- الحياة ستستمر مادامت الأرض ستبقى لنا.

ندت عنها ابتسامة رضا، ولمعت عيناها بفخر شديد. أحسستُ وقتئذ أنها تنظر الى ابنها نفسه وليس إلى قبره. مرت ثوان ثقيلة من الصمت، واستطردت:- قُلت له لم أكن يومًا فخورة بنفسي وبك كما أنا الأن. وكان هذا هو لقائنا الأخير، قصير لكن أثره باقٍ الى أمد الدهر.

دمعة حزينة فَرِت من مقلتيها بدون إذن منها. مسحتها بأطراف أصابعها، وعادت لتبتسم من جديد.

حملتُ جثث لأصدقاء قَضيت معهم شهور، ضمدت جرحى وسمعت صرخات وأنين يعجز عنى وصفها بالكلمات، لكن لاشيء من ذلك مَزق شرايين قلبى وأسال دمعى كما فعل ثبات وتماسك تلك العجوز.. بشموخ وعزة المنتصر راحت تقف أمام قبر وليدها الوحيد بعد تعب السنين وسهر الليالي وأحلام المستقبل. فمن أين لها بتلك القوة وهذا الصبر!؟.

تركتنى متأثرًا ومضت نحو القبر، وضعت عليه يديها المعروقتين بلونيهما البنفسجي، وقالت:

- سلامًا عليك ياولدي.. سلامًا عليك وعلى أبناء وطنُنا الغالي.

تمت

روائح ضالة

"أنا أمشى هنا! أنا أمشى هنا"

فيلم Midnight cowboy

فى اللحظة التى رفع فيها رمضان بصره فى مواجهه بيت العائلة تنهد بعمق فى حالة من الرضا والفخر الشديد! أخيرًا عاد البيت الى حالته الأولى تمامًا كما كان يتذكره قبل أربعون عامًا: الأثاث القديم، الجدران العارية المشققة، المفارش المرقعة بالألوان الباهتة ذاتها، والثريا الصدئة تتدلى من السقف البالي. البيت ذاته الذى شهد على أفراحه وأحزانه وأحلامه وطموحاته من يوم وطأت قدماه أرض العالم حتى تم الثلاثون من عمره.

وكأن الزمن لم يمر، وبيعه لبيت العائلة لم يحدث من الأساس.

راح رمضان يتفقد البيت بتمهل دون أن تفارق الابتسامة ثغره إلا أن انتهى به المطاف داخل غرفة أبويه. دُلف إليها بخطوات راهب فى الكنيسة يتأمل كل ركن وكل تفصيله بدقة شديدة، ولأول مرة منذ زمن بعيد يفتقد ذلك الشعور الدافئ الذى كان ينبعث من حضن أمه ونظره الفخر فى عيون أبيه.

استلقى على الفراش النحاسي الضخم، وراح يحدق فى السقف العالي لبضعة دقائق، وما لبث أن أغمض عينه فى زهو وسرور. بين الجفون رأى رمضان شريط الذكريات بوضوح أكثر وبصورة

أفضل.. تذكر أيام الطفولة والصبا، تذكر الأصدقاء والجيران والإخوة والأخوات.. تذكر حكمة أبوه قبل أن توافيه المنية ويترك له دور الراعي وهو بعد فى الخامسة عشر من العمر.. تذكر أمه، حنانها، لمساتها، لحظاتها الأخيرة وهى تُوصيه بإخوته خيرًا، وبالبيت، وبلم شمل العائلة بين جدرانه الى أمد الحياة.

لكنه كان طموحًا وقتذاك، ربما طموحًا أكثر من اللازم، وبدت له تلك الوصية فيما بعد تافهة وخرقاء وعديمة القيمة. كيف له أن يحقق أحلامه الخاصة الذهبية وهو محكوم بتلك الوصية!؟. الوصايا التى لاتعود بالنفع على الورثة لايجوز تنفيذها. فكر واتخذ قراره.

كان أمر بيع البيت صعب لكنه غير مستحيل خاصًا أن إقناع أُختيه البنات جاء عن طريق أزواجهن، ولم يكن فهمى بحاجة الى الإقناع لأنه صاحب مزاج وفى أمس الحاجة الى المال لتوفير هذا المزاج.. أما حسان أخوهم الأصغر وأكثرهم تعلقًا بأمه وبالبيت فكان بمثابة العائق الوحيد الذى استعد له رمضان جيدًا ولم يتوانى عن استخدام كل الحيل ليصل الى مبغاه؛ بالتهديد والوعيد تارة وبالحديث المعسول تارة أخرى حتى أذعن حسان فى النهاية، وتم البيع.

ويمر على رمضان سنوات طويلة من العمل الدؤوب والسهر والركض من هنا لهناك فى سبيل تحقيق أحلامه: الزواج والبنون والسلطة والثروة وكل شيء تمناه. نسي البيت والعائلة والذكريات وقطع كل الخيوط التى تربطه بعالمه القديم البائس.

وذات يوم أحس رمضان على حين غرة بألم فى الصدر مع ضيق فى التنفس وغثيان، شُخصت حالته باضطرابات نظم القلب، وأوصاه الطبيب باهتمام بالغ الحد من حالات التوتر والقلق وأن يكف عن فعل أي مجهود عصبي أو نفسي، وضرورة التقاعد عن العمل وقضاء معظم أوقاته فى البيت.

تنكر له الجميع فجأة على إثر الخبر.. انزوى عن العالم، لايزوره أحد ولايزار. فراغ قاتل ملأ حياته، أيامه كلها، تعاسته، رغباته، فازداد مرضًا على مرض. كان يقضى أيامه جالسًا وحيدًا فى الحديقة الخلفية لفيلته بينما تقوم زوجته وأبناؤه بإدارة الأملاك والأموال التى أمضى عمره فى تكديسها.. وفى غمرة الحزن والوحدة تلك كان الحنين يأخذه دائمًا فى رحلة الى الماضى، يحارب به صمت وانعزال وكآبة حاضره، ويجتر بمرارة الذكريات. فكر هامسًا: لما لا أعيد بناء بيت أبى مرة أخرى ولم شمل العائلة تنفيذًا لوصية أمى.

الفكرة وحدها أزهرت بداخله احساس عميق بالحياة.. وامتلأ قلبه بالحماس.. ذكرياته القديمة حركت خياله.. قوة أكبر من المرض والحزن والوحدة كان تتدفعه خارج فيلته كل صباح..

"لايمكنك إعادة الماضى" قالت زوجته راجية. لكنه رغب فى إعادته، كان هذا هو الشيء الوحيد الذى أراد أن يفعله حقًا ولو لآخر يوم من عمره.

فى البداية دفع مبلغ ضخم لشراء نفس قطعة الأرض التى كانت يومًا مِلك للعائلة.. ثم أمر بهدم العقار الذى بني فوقها، واستعان

بمتخصصين لبناء صورة طبق الأصل من البيت مستعينًا بذاكرته القوية لوصف أدق التفاصيل حتى الصغيرة منها والغير هامة. ولقد استلزم منه الأمر مجهود ووقت أطول من المتوقع لكنه فى النهاية تم على أكمل وجه، وعاد بيت العائلة الى حالته الأولى ولم يبقَ أمامه سوى لم شمل العائلة.

- وأين هي العائلة يارمضان؟!.

فتح عينيه فى انزعاج شديد، وجلس على حافة الفراش يتصبب عرقًا.

-أين هي العائلة يارمضان؟!.. الأختان اللطيفتان تحولا لوحوش كاسرة تأكل بعضها البعض كلما اجتمعا فى مكان واحد! بعد أن حال بينهما الأزواج ودبت الشكوك والغيرة فى قلوبهن.. مات فهمى بعد سنوات قليلة من البيع إثر جرعة مخدرات زائدة.. أما حسان فقد رحل الى بلد لايريد لأحد أن يعرف عنه شيء أو يعرف عن أحد شيء.

فأين هي العائلة يارمضان!؟. سخرت أخته الصغيرة قبل أيام على الهاتف وقتما أخبرها بعزمه على إعادة بناء بيت العائلة مرة أخرى.

نهض رمضان متثاقلًا عن الفراش وهو يشعر بوخزه فى قلبه وضيق فى النفس.. راح يركض فى الغرف كمن يبحث عن شيء ضائع، عن صوت أو رائحة فيها من روح الماضى.. ظل يخرج من غرفة لأخرى ويقول لنفسه كل شيء سيعود كما كان.. كل شيء سيعود كما كان.

وإذ فجأة وبدون استئذان تسلل الى أنفه رائحة نفاذة تنبعث من الجدران المطلية حديثًا، ومن الأثاث حديث الصنع قديم الشكل، ومن الأجهزة المنزلية والأدوات والمفارش والستائر وكل شيء.. حتى الشارع وعبر النوافذ هبت روائح كريهة وأصوات شاذة عن ذاكرته وماضيه.. وكأن الكل قد اجتمع عليه لطمس الماضى كليًا.

تلقى رمضان كل هذا كلكمة قوية فى وجهه أعادته الى الواقع.. تهالك على المقعد المجاور اتقاء لسقوط مفاجئ ناتج عن الهزيمة.. صدره يرتفع وينخفض فى لهاث عجيب.. أخيرًا بدأ يعي أبعاد الوهم الذى عاشه أسابيع.. شعر بمزيد من العجز.. عيناه تزداد انغلاقًا كأنه يودع الحياة. تسلل الى أذنيه صوت حسان حينما قال فى لقاء الأسرة الأخير قبل البيع:- سيأتى يوم تتمنون فيه العودة الى هنا ولن يحدث أبدًا.

جال بنظره فى البيت للمرة الأخيرة باحثًا عن أي رائحة مألوفة تدغدغ حواسه.. رائحة بإمكانها انقاذه.. عيناه تعودان بخيبة أمل وقد امتلأت ببلورات من الدمع الصافي.

إذا أراد المرء إعادة الماضى فعليه بإعادة كل من عاش فيه أولًا! وهذا قطعًا مستحيل.

نهض فى طريقه الى الخارج باستسلام يائس حزين.. توقف.. خطرت له فكرة.. استدار عائدًا الى المطبخ فى نهاية الرواق.. بحث فى الأدراج والدواليب فى حالة أقرب من الجنون إلا أن عثر على شمعة بيضاء يتيمة: "ستفى بالغرض" قال لنفسه.. أشعلها وثبتها بإحكام على الطاولة الخشبية بالجوار، ثم مد يده المرتعشة

المتغضنة بالتجاعيد وفتح كل أعين البوتاجاز والأنبوبة. خرج على إثرها مهرولًا الى سيارته المنتظرة أمام البوابة الأمامية، حيث انطلق به السائق بعيدًا دون أن يلوى على شيء.

دوى انفجار صارخ هز البيوت والقلوب فالتفتت إليه العيون والحناجر فى هلع شديد.. وعلى بُعد أمتار توقف سائق رمضان وأطل الأخير برأسه من النافذة الخلفية للسيارة. كان السائق والمارة ينظرون الى النيران والأبخرة السوداء وهى تتصاعد من فوق أسطح البيوت نحو السماء، أما رمضان فكان ينظر الى ذكريات وأحلام وأمانى تتبخر، شريط من الصور المتلاحقة تمر أمامه تشبه فلاشات عدسات التصوير تبرق بشدة وتختفى. حزن عميق يسرى فى أوردته الضعيفة.. وماضى بعيد يسخر منه، ويقول: " لاشيء يعود يارمضان.. لاشيء يعود ".

وأحس بغصة فى حلقه.

فبكى أمه وأبيه.. وبكى البيت الكبير..

وبكى نفسه.. وعلى وضعه فارق الدنيا.

تمت

وجهان للمنام الواحد

"نحن أحياء وباقون.. وللحلم بقية" .

محمود درويش

فى زقاق هادئ، وسط أجواء المدينة الصاخبة، تقبع شقة "جد يوسف" بحجراتها الأربعة فى الطابق الأول من مبنى إيجار قديم، حيث كان يعيش بمفرده منذ اثني عشر عاما، بعدما توفيت زوجته بعد صراع طويل مع مرض السرطان، سبب له تعاسة لا حد لها ، وحول ملامحه الى كتلة من التجهم، فما عاد يحب أن يزوره أحد أو يُزار.

أكثر ما يلفت الانتباه فى بيت "جد يوسف" هي تلك المكتبة الهائلة التى تحتوى على عدد ضخم من الكتب والروايات، بالإضافة الى صور ولوحات ثمينة وستائر داكنة اللون تغطى كل جدران الشقة، فيما عدا المطبخ والحمام.

وكان جد يوسف يتبع روتين يومي لايتغير، إذ كان يقضى نصف نهاره الأول جالسًا على الكرسي الهزاز فى الشرفة غارقًا فى صمته يتأمل الفراغ الممتد أمامه، والنصف الأخر من النهار وشطرًا من الليل فى الصلاة والتسبيح. وإن حاول أحدهم تغيير هذا الروتين أو إضافة أي تعديل عليه كان يعامله بقسوة مفرطة، وكأنه عدوًا له وليس صديق قديم أو جار طيب القلب أو حتى ابن

يخشى عليه من نيران الوحدة، وقد ساور البعض إحساس أنه على مشارف فقد الذاكرة أو أن عقله راح بالفعل.

وذات يوم تجرأ يوسف، حفيده الأصغر ذو السبعة أعوام، فى إحدى زيارة جده المتباعدة على الجلوس معه فى الشرفة وقت انشغال أبويه بتحضير الغذاء وتنظيف البيت. أراد يوسف أن يحكى لجده عن منامًا رآه قبل يومين، كي يفسره له، مثلما يحدث مع الكبار عندما يروا منامًا غامضًا.

كان يوسف، وقتذاك، يرتعد من فكرة الاقتراب من جده أو حتى التحدث إليه خوفًا من نوبة الغضب التى يتحدث عنها الجميع. لكن ذلك المنام العجيب منحه جرعة كبيرة من الشجاعة يملؤها الفضول والاسترابة.

بلامبالاة وشرود تام استقبل الجد طلب حفيده ولم يعلق، لكن يوسف كان قد أتخذ قرارًا لارجعة فيه، فشرع فى الحكي على أمل أن يجذب انتباهه ولو قليل:

رأيت ياجدي فى المنام أننى كنت أرتدى بذلة زرقاء بربطة عنق طويلة، وقميص أبيض بياقة، وفى قدمي حذاء أسود لامع، مع أننى فى الواقع أكره حذاء أبي اللامع ولا أطيق اللون الأسود. وكنت، فى المنام، فى غاية السرور والبهجة لأننى أقف على مسرح ضخم ستائره مزركشة بالألوان، وأضواءه باهرة، وخلف ظهري يتراص صف من رجال ونساء بملابس أنيقة، فوق رؤوسهم عدد كبير من الكتب، وفى عيونهم نظرات احترام

وتجلى، بينما أقف مرفوع الرأس، فخورًا بما وصلت إليه من مكانة وشهرة.

انشرح يوسف لأن جده التفت إليه بالفعل، وقد بدا عليه الاهتمام، فاستأنف:

وكان فى الأسفل ألاف من الجماهير المتحمسة لسماع صوتي، كل مجموعة منهم ترتدى ملابس مختلفة عن المجموعة الأخرى، وأشكالهم بدت مختلفة، وكأنهم جاؤوا من بلدان عديدة تمامًا مثل جماهير كأس كرة القدم، لكنهم يرتدون أعلام بلادهم بدلًا من حملها.

انتفض جده ولم يستطع إخفاء علامات دهشته، ارتعشت أطرافه وارتفع صوت تنفسه وهو يحدق فى حفيده الصغير، ثم همس أخيرًا :

- ما الذى تقوله يايوسف؟ قله ثانيةً ياولد.

ظن يوسف أنه أثار غضبه، ففى عينيه غموض يحمل الكثير من الحيرة والتشكك، فأمسك عن الكلام لبرهة وفكر جديًا فى الهرب إلى أحضان أبويه، لكن جده استدرجه بالتشجيع حتى حكي له من الأول، وأضاف:

على رأس كل واحد من الجمهور كتابًا أو كتابين، متشابهين أو مختلفين بين كل واحد والثاني، وقد خيل لي أننى امتلك كل تلك الكتب، مع أننى لم أرى أيًا من المكتوب على الأغلفة، لكن كتاب منهم كان قريب للغاية وعنوانه مكتوب بخط ضخم باللون الأسود،

ركزت بصري وقرأت المكتوب بسرعة على عكس عادتى فى القراءة. ضحك يوسف ببراءة، وسأل جده:

- أتعرف ماذا قرأت ياجدي؟.

فقال الجد متمتمًا:

- وجهان للمنام الواحد.

اتسعت عينى يوسف وفغر فاه، لأن الكتاب فى المنام كان مكتوب عليه بالفعل "وجهان للمنام الواحد" وكأن جده كان معه:

- نعم ياجدى.. وجهان للمنام الواحد.. نعم.. لكن كيف علمت بهذا؟.

عاد جده ينظر الى الفراغ محاولًا لملمة أفكاره من شتات الدهشة، أغمض عيناه المفزوعتين حتى اختفت بين تجاعيد وجه الشاحب، فتح عينيه ثانية، فألقى يوسف قبالته لايقل عنه فزعًا، على وجه ب براءة وفي عينيه صدق عجيب. فراح يتأمله وكأنه يراه للمرة الأولى، وتبين له أنه يشبهه فى الكثير من الملامح، وجه مستطيل خمري، أنفه مدبب، شفاهه ممتلئة، وعيناه عسليتان معبرتان.

غمغم جده بصوت ضعيف وكأنما يحادث نفسه:

- لأننى رأيت نفس الحلم فى نفس اليوم يايوسف.

ولما انتبه لدهشة يوسف الكبرى وتلاطم خواطره، ربت على كتفه بحنو، وقال:

- أكمل يايوسف، ماذا حدث بعد ذلك؟.

لكن يوسف فكر أن يتوقف عند هذا الحد زاعمًا أن المنام قد انتهى، لكن نظرات جده وابتسامته العريضة الغير معهودة منه دفعت الكلمات من بين شفتيه دفعًا:

لمحت بالجوار مرآه طويلة بإطار ذهبى، وعندما نظرت لنفسي فيها! وياللعجب.. كنت أنت ياجدي.. أقصد أن الرجل الذى رأيته فى المنام يقف على المسرح حاملًا الكتب بين ذراعيه، ويصفق له الجمهور يشبهك الخالق الناطق.. وكان يخيل لي أن أنا وأنت واحد! فتهللت ولا أعرف لماذا؟!. وصحوت من النوم فى لحظة آذان الفجر وقلبى يخفق خفقانًا شديدًا!!.

عندها، وياله من مشهد! قام الجد بسحب يوسف بين ذراعيه النحيلتين، احتضنه بقوة كمن وجد جوهرة ثمينة بعد طول بحث، ثم دفعه قليلًا ونظر الى عينيه مباشرة، قائلًا: مادام حلمي وحلمك واحد يايوسف، فطريقنا من الأن فصاعدًا.. واحد.

حتى تلك اللحظة لم يكن يوسف يعرف أي شيء عن تاريخ جده القديم، ولكن، فى الأيام القليلة المقبلة سيعرف عن أهم جزء فى حياة كليهما.

فمن ذا كان يتوقع أن هذا العجوز البائس الذى أمضى عمره فى حياة أكثر من عادية، هو فى الأصل شاعر كُتبت عنه الصحف والمجلات فى بداية مشواره الأدبي بأن شعره يمتاز بالسهولة والغوص عميقًا فى بواطن النفس البشرية، لكن كتاباته على أرض الواقع لم تلقى استحسانًا بين القراء، وسرعان ما تهربت منه دور

النشر، وتجاهله النقاد حتى انطفأت شعلته وانصرف عن الكتابة مستسلمًا لأعباء الحياة وخيباتها المتكررة.

إلا أن هذا المنام العجيب الذى تشارك فيه مع حفيده! أحيا بداخله رؤية مستقبلية حاول جاهدًا دفنها فى طي النسيان، حلم أثير ماتوقع يومًا أن بالإمكان إعادة إحياؤه فى جسد أخر بفكر جديد.

فيوسف رغم صغر حجمه وقلة استيعابه لما يحدث بات هو الأمل الوحيد الذى سيحقق له حلم العمر.

ومنذ ذلك التاريخ أصبح بينهما علاقة شديدة الخصوصية، لايخرج الجد إلا ويوسف معه،متشابكين الأيدي وذراعيهما يتأرجحان فى نفس الاتجاه، اصطحبه الجد متى استطاع الى أمسيات شعرية فى مقاهي ملتقى الأدباء وسط البلد، تلك الأماكن الثقافية التى فاجئ الجميع بأنه يعرفها جيدًا بكل ركن وزاوية فيها، ولايعرفه أحد. غاص بيوسف فى بحور الشعر العربي، علمه النظر الى خفايا الكون فى الفراغ الممتد وإطلاق العنان لقدرات الإبداع الشعرية الكامنة فى بواطنه، قائلًا أن فى الفراغ عبارات وقصائد لايراها إلا من كان جادًا فى شعره عاشقًا لأدواته. علمه الثقة بالنفس التى حرمها على نفسه، وعلمه الثبات.

وعندما وجد يوسف يميل الى كتابة القصص ونسج الخيال علمه كيفية الاستفادة من الشعر فى السرد والحوار، فخرجت من بين يديه قصص شعرية عزفت على أوتار قلب القارئ وسحرت عقله.

وكلما كبر يوسف كان إدراكه بحجم المسئولية التى يحملها على عاتقه يزداد، فالحلم الذى جمع الجد وحفيده ذات مرة كان لابد من

تحقيقه مهما كان الثمن، صحيح أنه صار أكثر انغلاقًا على نفسه، وأن قرارات صعبة كان لابد أن تُتخذ، وأن سنوات من عمره مرت دون أن يكون له زوجة وعائلة وبيت مستقر، لكنه فى النهاية، ورغم كل شيء، استطاع تحقيق الحلم. وبات اسمه لامعًا فى سماء الأدب والشعر، معروفًا فى الصحف والتليفزيون والسينما، وأيضًا على مواقع التواصل الاجتماعي بروائي وشاعر وسيناريست مصري لاقت كتاباته رواجًا كبيرًا مكنته من الحصول على جوائز عربية وعالمية.

كان الجمهور يأتى إليه من كل حدب وصوب ليراه على المسرح مكرمًا، فينهال عليه بالتصفيق الحار وصيحات التشجيع، وكان يوسف يقف أمامهم بشموخ متعالٍ، حاملًا بين كفيه جائزته، وعينيه متعلقة بالفراغ الممتد أمامه، يتمتم ببضع كلمات محفوظة تخرج من فمه بسلاسة، وقلبه وعقله لايرى إلا شخص واحد. يغمض عينيه بتلهف عاشق فيتلامح أمامه جده بوجه المستطيل الخمري، وأنفه المدبب، وعيناه العسليتان المعبرتان، فيشعر بالفخر الشديد، ويبتسم.

تمت

ألبوم صور

"الحب يزحف حين لايستطيع أن يمشى"

ويليام شكسبير

قد تظن أنك لن تجد فى دار المسنين إلا الكآبة والحزن والموت المُحلق فى الأرجاء، ولكن مهما كانت رؤيتك للعجزة، فإن ذلك لن يغير من حقيقة أن لديهم عِبر وحكايات بإمكانها أن تغير من نظرتك للكون بأسره، والأهم.. نظرتك للحب.

كل شئ فى دار الروضة للمسنين يسير بروتين يومي لايتغير، فهناك وقت مخصص لإفطار النزلاء يبدأ من الثامنة صباحًا، يليه وقت التنزه فى ساحة الدار الفسيحة المصفوفة بالأشجار والزهور الملونة، وقت لاستقبال الزائرين فى يوم الجمعة، وقت لتناول العشاء أمام شاشة التلفاز، وأخيرًا وقت للدردشة واللعب إلا أن يغلبهم النعاس فى طريقهم الى مضاجعهم.

لكن فدوة، ذات السبعين عامًا، ظلت تصنع يومها الخاص على الرغم من مرور ثلاث سنوات على وجودها فى الدار، لم تلتزم يومًا بالقوانين، لم تشارك فى ثرثرة النزلاء، لم تبوح بالأسرار ولم تنوح بالشكوى، حتى إنها لاتعرف أسماء طاقم فريق الرعاية، ونادرًا ماتهتم بما يجرى فى الخارج أو تغادر غرفتها.

اعتادت فدوة على الاستيقاظ فجر كل يوم لتؤدي صلاتها فى الموعد بمساعدة إحدى المشرفات، لكنها عوضًا عن العودة الى النوم، كعادة باقي أيام الأسبوع، كانت فى فجر يوم الجمعة تتجه لتجلس على الفراش بينما تقوم المشرفة بوضع الوسائد خلف ظهرها.. تأتي لها بألبوم الصور من خزنة ملابسها.. تتأكد من إرضائها بالكامل.. ثم تخرج .

تتنهد فدوة بعمق، المرة تلو الأخرى، ثم تنظر الى ألبوم الصور أمامها بعنينين شغوفتين؛ تلك كانت لحظتها المفضلة لتنسحب بسرعة عن الحاضر وتغوص بين حنايا الماضى.

تفتح الألبوم على صور قديمة ذات اللونين الأبيض والأسود، فترى أول ماترى صورة بالية لأمها وأبيها فى ليلة الزفاف، على ثغرهما ابتسامةً عريضة وفى عيونهما ثروة من الفرح والنشوة والأمل والحب قبل أن تتداعى الأحوال عبر الزمن وتصل بينهما الى حد الفوضى. صورة أخرى لهما برفقة فدوة وهي رضيعة مستلقية على ذراع أمها وعلى وشك البكاء. ثمة صورة "٤×٦" لوجه طفلة ذات عيون واسعة وشعر مرفوع، كانت صديقتها المقربة قبل أن تنتقل مع أمها الى الصعيد بعد وفاة والدها وتختفى الى الأبد. صور لها كثيرة وهي شابة فى مقتبل العمر بملابس قديمة، من سبعينات القرن الماضي، وتصفيفات شعر وقتها كانت عصرية وعلى أحدث موضة. تتغير الصور فجأة لتصبح بالألوان.. تجرى الدماء فى عروق أصحابها، فتبصر فدوة صور لها مع زوجها وأخرى لهما مع بناتهما بمختلف أعمارهن وكذلك مع أحفادهما وأبناء أحفادهما الصغار. تبتسم بوله قبل أن يعود

بصرها ليتأمل صورة لحفل عيد ميلاد إحدى صديقاتها، سخافة من أيام المراهقة كان من المفترض أن تكون منسية لكن ألبوم الصور منحها قيمة وكيان وذكرى لا تنسى.

حدث ذلك قبل زمن بعيد، كانت فدوة لاتزال طالبة فى البكالوريا، وكان هو يعمل مع أبيه فى سوق التجارة، التقيا فى الحفل، وفورًا راقا لبعضهما البعض. كان طويلًا فى غاية الوسامة والجاذبية معروف بين الجميع باهتمامه بالمظاهر وولعه بالجميلات، فضلًا عن كونه بليدًا لدرجة تصل الى الغباء أحيانًا، لكن فدوة كانت ولأول مرة فى حياتها تراودها تلك الرغبة الملحة على التواصل واللقاء. ثمة نور غير مفهوم يعبرها بخفة كلما اقتربت من هذا الشاب أو رأته من بعيد. كل دقيقة معه كانت تدفعها الى التعلق: النبرات، الحركات، لغة الجسد، الصوت، الرائحة، النظرات والكلمات التى بدت لها كلحن الغزل يطرب آذانها فرحًا وسعادة، لدرجة أنستها أنها بالفعل مخطوبة ولا يحق لها اختيار رفيق الفؤاد.

كان الكبار قد قرروا زواجها بابن عمها "ابراهيم" منذ أن كانت صغيرة لاتفهم فى أمور الزواج شيئًا، البنت لابن عمها، قالوها بفخر وتبادلوا العهود وقراءة الفاتحة، ومنذ ذلك التاريخ وابراهيم يعتبرها شريكة حياته مهما كانت مشاعرهما وأفكارهما فى المستقبل.

لكن فدوة، على عكس ابراهيم، كانت على أتم الاستعداد لإعلان الحرب لأجل هذا الشاب لو كان عرض عليها الزواج أو تقدم بخطوة واحدة فى طريق مستقبلها المشترك..

لم يفعل.. فقط راوغها كثيرًا ليحصل على ماهو أكثر من قلبها البكر، ولما فشل فى مسعاه أدار لها ظهره، ورحل.. بتلك البساطة، وكأن الوعود والأماني والأحلام الوردية التى صنعها من أجلها كانت مجرد ضباب سيأتى عليها لحظة وتتبخر.

وقتما جاء ابراهيم ليطلبها للزواج بموجب العهد القديم، لم تجد فدوة فى نفسها مايسعفها على المقاومة، فغدت كالدمى تتلقفها الأيدي دون أن تصدر عنها صوتًا أو رغبة.

ومنذ أن وطأت قدماها بيت الزوجية، لم تكره شيئًا كما كرهت إيحاءات الحب وأغاني أم كلثوم، كل هذا كان يعيدها الى ذلك العمق الجاف من روحها الناضبة، حتى إنها لم تعد تجد لذة فى الاكتشاف وتجدد الأحلام.

كان ابراهيم موظف فى الحكومة ومع ذلك لم يكن جادًا فى حياته العائلية، بل كان يأخذ كل أهوال الدنيا ببساطة يحسد عليها، فمثلًا عندما خسرت فدوة جنينها الأول فى الشهر السادس تمدد بجوارها على الفراش وراح يروى القصص الفكاهية والنكات لساعات طويلة دون كلل، وأمضى الشهور الموالية يحاول جاهدًا التخفيف عنها بأي وسيلة كانت، حتى إنه أخذها لأداء فريضة الحج بمكة المكرمة، فهو من النوع المؤمن بأن شدة ابتلاءك تتناسب عكسيًا مع درجة قربك من الله.

قبل ذلك كانت فدوة تستثقل خصاله لكنها مع الوقت أصبحت تميل الى الإعجاب بمرحه وبشاشته وطيبة قلبه وحب الناس له، أحست بمرور الوقت أنه يكملها ويذيب كل الجمود الذى جثم على قلبها

من جراء حبها القديم، بالطبع لم تخلو حياتهما من الصعوبات والاحتجاج والتبرم لكن المشاركة الطويلة بينهما خلقت ماهو أثمن من الحب وصلة القرابة: العبادة الصامتة.

طوال فترة زواجهما التى تعدت واحد وخمسون عامًا أنجبا ثلاثة فتيات، خمسة آخرين منهم ذكورًا لم تكتب لهم الحياة، وقبل أن تستوعب فدوة مدى سرعة جريان العمر كبر الفتيات، تزوجن تباعًا وأنجبن سبعة أحفاد مجتمعين أعادوا الى البيت صخبة وجنونه ونظام اللانظام.

وفجأة، وبدون مقدمات، مات ابراهيم. استيقظ كعادته فجر الجمعة ليصلى فى الموعد ولم يرجع الى فراشه الدافئ. مات، وماتت الحياة معه. قضت فدوة شهور العدة بعيون ذابلة وروح تتألم بصمت، تطاوعها دموعها حينًا وتخونها حينًا أخرى فاغتالت المرارة أعماقها. كل شيء حولها كان يقودها الى الجنون، كل شيء كان يخنقها: بيتها، عتبته وجدرانه، صالته الطويلة بأثاثها الكلاسيكي، وتلك الغرف الثلاثة الصغيرة التى حملت كل ذكرياتها وأفراحها وأحلامها الساكنة. كانت تردد لنفسها "تزوجت هنا وستخرج جنازتي من هنا".

وفى تلك الفترة علمت أنها لاتريد لتلك الرغبة أن تتحقق أبدًا. فهل يمكن لرغبات الانسان أن تنقلب فجأة هكذا بين ليلة وضحاها وكأنه غريب عنها!. نعم.. ممكن .. فهذا هو ماحدث مع فدوة، إذ لم تعد تريد العيش فى البيت بدون ابراهيم، تتجول فى طرقات المدينة بدونه، تزور بناتها من دونه، تتمتع بحياتها من دونه، فالعالم الخارجي فى نظرها بدا مؤذى وبارد.

بارد للغاية..

ولذلك أشرق عقلها بفكرة أن تعيش فى دار مسنين، واختارت دار الروضة بالذات لقربها من منزل ابنتها الكبرى وبعدها عن زحمة المدينة وضجيج سكانها.

رفض الجميع الفكرة، وتحطم قلب بناتها، وشعر الأصدقاء والجيران بالأسف تجاهها، لكنها كانت قد اتخذت قرارًا لارجعة فيه "ستعيش هنا ماتبقى لها من عمر، وستخرج جنازتها من هنا". تردد لنفسها بإصرار وتهز رأسها راضية.

صوت طرق خفيف على باب غرفة فدوة يبدد وحدتها ويعود بها الى الحاضر، تزفر عاليًا بانزعاج شديد، تلقى نظرة وداع على ألبوم الصور، تغلقه برفق، تطبع عليه قبله حنين، تحتضنه، تضعه على المنضدة بالجوار، وتسمح للطارق بالدخول.

تمت

تتمه

ذات يوم، سألت جدتي عن أيامها وقت الصبا والشباب، فاستلقت بجواري على الفراش، وراحت تحكى وتحكى حتى غلبنى النعاس، ونمت. وإذا بيد توقظنى، وأحدهم يهمس برقة فى أذنى:

- جدتي استيقظى.

ببطء وتردد فتحت عيني المصبوغتين بالسهاد والوهن، ورأيت حفيدي ينظر لى بمزيج من الدهشة والحيرة، فأدركت حينها أن حياة المرء وإن اختلفت فى تفاصيلها، لابد أن تتشابه فى النهاية.

تمت

الحَياة بِعُيون المُسِنّين

أمل العشماوي (مواليد مصر ١٩٩١)

مجموعة قصصية اجتماعية تبرز لنا الكثير من
المشاعر الإنسانية والمآسي
التى يمر بها المسنين، كيف يرون المجتمع،
وكيف يراهم المجتمع. بعضهم يهرب من
حاضره
المتبلد بماضيه، وبعضهم يواكب الحاضر
بطريقته الخاصة.
القصص العشرة الواردة فى هذه المجموعة
هم: صندوق الحلوى، نفحة الإنعاش، أسرار
ودفائن،
القرين اللدود، جريمة شرف، أم البطل، روائح
ضالة، وجهان للمنام الواحد، ألبوم صور، تتمه.